



لماذا أحببت ابن سعود

بقلم

محمد أمين التميمي

١٣٦٣هـ - ١٩٤٤م

صدر بمناسبة مرور مائة عام على تأسيس المملكة العربية السعودية
(١٤١٩هـ - ١٩٩٩م)

لماذا أحببت ابن سعود

ⓒ دارة الملك عبدالعزيز
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

التميمي، محمد أمين

لماذا أحببت ابن سعود.-الرياض

١٣٦ ص ؛ ١٧×٢٤ سم.

ردمك: ٥-٣٢-٦٩٣-٩٩٦٠

١-عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود، ملك السعودية ٢- السعودية - تاريخ- الملك عبدالعزيز أ- العنوان

ديوي ٩٥٣،١٠٥ ١٩/٣٠٧٤

رقم الإيداع: ١٩/٣٠٧٤
ردمك: ٥-٣٢-٦٩٣-٩٩٦٠

حقوق الطبع و النشر محفوظة لدارة الملك عبدالعزيز، ولايجوز طبع أي جزء من الكتاب أو نقله على أي هيئة دون موافقة كتابية من الناشر، إلا في حالات الاقتباس المحدودة بغرض الدراسة مع وجوب ذكر المصدر.

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسول الله ، أما بعد :

فإن الإسلام أكبر نعمة أنعمها الله على الأمة، واستحضار هذه الحقيقة في كل عمل مخلص هو قمة الوعي بها، ومن ثم الدفاع عن مقوماتها . ولقد أدرك الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن الفيصل آل سعود - رحمه الله - عظمة هذه النعمة الإلهية، وعمل على تمثلها في نفسه ، فجعل الإسلام نبراساً له في كل أعماله، وحقق أهدافه السامية المتمثلة في التمسك بالعقيدة وتطبيق الشريعة الإسلامية والدفاع عنها ونشر الأمن، وتأسيس مجتمع مُوحَّد يسوده الرخاء والاستقرار .

ولقد كان استرداد الملك عبدالعزيز الرياض في الخامس من شهر شوال عام ١٣١٩هـ/١٩٠٢م هو اللبنة الأولى في تأسيس المملكة العربية السعودية، في حين تعود جذور هذا التأسيس من مائتين واثنين وستين عاماً، عندما تم اللقاء التاريخي بين الإمام محمد بن سعود والشيخ محمد ابن عبدالوهاب-رحمهما الله-عام ١١٥٧هـ/١٧٤٤م، فقامت بذلك الدولة السعودية الأولى على أساس الالتزام بمبادئ العقيدة الإسلامية، ثم جاءت الدولة السعودية الثانية التي سارت على الأسس والمبادئ ذاتها.

وعندما بدأ الملك عبدالعزيز في مشروع البناء الحضاري لدولة قوية الأركان، كان يضع نصب عينيه السير على منهج آبائه، فأسس دولة حديثة

قوية، استطاعت أن تنشر الأمن في أرجائها المترامية الأطراف، وأن تحفظ حقوق الرعية، بفضل التمسك بكتاب الله - عز وجل - وبسنة رسوله ﷺ . وامتد عطاؤها إلى معظم أرجاء العالمين العربي والإسلامي، وكان لها أثر بارز في السياسة الدولية بوجه عام ، بسبب مواقفها العادلة والثابتة، وسعيها إلى السلام العالمي المبني على تحقيق العدل بين شعوب العالم .

وجاءت عهود بنيه من بعده : سعود وفيصل وخالد رحمهم الله، وخادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز - يحفظه الله - امتداداً لذلك المنهج القويم.

وفي الخامس من شهر شوال عام ١٤١٩هـ / ٢٣ يناير ١٩٩٩م يشهد التاريخ مرور مائة عام على دخول الملك عبدالعزيز - رحمه الله - الرياض، وانطلاق تأسيس المملكة العربية السعودية، عبر جهود متواصلة من الكفاح والبناء، نقلت هذا الوطن وأبناءه من حال إلى حال. وصنعت بتوفيق الله تعالى وحدة حقيقية على أساس الإسلام، ملأت القلوب إيماناً وولاءً، وجسدت معاني التلاحم التاريخي بين الشعب وقيادته في مسيرة تاريخية .

إن استحضار أحداث ذلك اليوم في نفوس أبناء المملكة عونٌ على شكر الله على نعمه، وتذكير بأن هذه البلاد التي قامت فيها الدعوة والدولة معاً لا تزال وفية لعهد أجيال التأسيس والتوحيد، مستمدة منهجها في الحياة من كتاب الله وسنة نبيه

ومن أجل رصد الجهود المباركة التي قام بها المؤسس - رحمه الله- وأبناؤه من بعده ؛ عرفاناً بفضلهم ووفاء لحقهم ؛ وإيضاحاً لمنهجهم القويم فقد قامت دارة الملك عبدالعزيز بإعداد العديد من الدراسات والإصدارات التي تتناول بعض تلك الجهود في منجزات علمية موثقة لتدلل بذلك على ما أسبغه الله - عز وجل - على هذه البلاد وأهلها، من تقدم علمي ، ومن نهضة زاهرة . وهذا الكتاب ما هو إلا جزء من سلسلة «مجموعة المكتبة المئوية» التي تقوم دارة الملك عبدالعزيز بإصدارها بمناسبة مرور مائة عام على تأسيس المملكة العربية السعودية، وهي سلسلة علمية تهدف إلى خدمة تاريخ هذه البلاد ومصادره المتعددة .

وفي الختام أسأل الله القدير أن يديم علينا نعمه ، وأن يوزعنا شكرها ، والحمد لله الذي بفضله تتم الصالحات، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

سلمان بن عبدالعزيز
رئيس مجلس إدارة دارة الملك عبدالعزيز

الإهداء

إلى من أضاء الله به طريق الهداية، وسدَّ بسيفه سُبُلَ الغِواية.

إلى قاطع دابر المفسدين، ومؤمّن ديار المسلمين، ومحكّم كتاب رب العالمين، ومحي سُنَّة أشرف الخلق أجمعين.

إلى من سكن قلبي، وأخذ علي تفكيرى ولبِّي، وغيَّر مجرَى حياتي.

إلى من يدعو له العرب جميعًا بطول العمر والتّأييد.

إلى حضرة صاحب الجلالة الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن الفيصل آل سعود ملك المملكة العربية السعودية.

محمد أمين التميمي

المقدمة

الحَمدُ للَّهِ رَبِّ العَالمِين، والصَّلاة والسَّلام على محمَّد النَّبيّ الأمين، وعلى جميع الأنبياء والمرسلين، وعلى آلهم وأصحابهم ومن تَبِعهم بإحسان إلى يوم الدين؛ وبعد:

فقد كتب كثير من الكتاب والمؤرخين عربًا وأوربيين عن (عبدالعزيز بن عبدالرحمن الفيصل آل سعود) وبحثوا تاريخه أميرًا مهاجرًا، وغازيًا مهاجمًا، وقائدًا فاتحًا، وإمامًا مُكرّمًا، وسلطانًا مُعظّمًا، ومَلكًا جليلاً، هذا الرَّجُل الذي سما إلى المَجْد بعد أن أزال بثاقب فكْره ماصادفه من أشواك، وذلَّل بصائب رأيه مااعترضه من عقبات، وأماط بحدّ سيفه ما لاقاه في سبيله من أذى، فتبوَّأ هذه المكانة السّامية الممتازة، وعدَّه العاقلون المنصفون من أفذاذ الرجال الذين قلما يجود التاريخ بأمثالهم.

ولن أحَاول في هذا الكتاب التعرض لما سجّله المؤرخون عن حياة هذا الرجل العظيم ممايستوعب المجلدات الضخمة، ويقتضي الوقت الطَّويل ولكني سأقصره على ما لمسته فيه عن كَثَب من النَّواحي الخلقية والسياسية وماشاهدته في بلاده مدة السَّنوات الخمس التي أقمتها فيها عابر سَبيل وطالبَ علم وموظَّفًا.

وليس الغرض من هذا الكتاب التحليلَ النفسانيَّ الدقيق، أو البحثَ التاريخيَّ العميق، ولكن السَّبب في وضعه هو أن كثيرًا من الإخوان والأصدقاء الذين أشيد أمامهم دائمًا بذكر ابن سُعود وأدحض كلّ دعاية ينشرها ضدَّه وضدَّ حكومته وبلاده من ليسوا واقفين على مجرى الأمور في

بلاد العرب، ولا على تاريخ هذا الرَّجل وما اتَّصف به من خلق طالما وَجَّه إليَّ هؤلاء الإخوان والأصدقاء السؤال قائلين: لماذا أحببت ابن سعود؟.

فوضعت هذا الكتاب جوابًا عن سؤالهم، وضمنتُه حقائقَ ومشاهداتٍ كانت سببًا في تغيير مجرى حياتي.

وقد أطلقتُ عليه عنوانًا هو السؤال الذي وُجِّه إليّ بعينه، وقسمتّه إلى ثلاثة أقسام وخاتمة، ذكرتُ في القسم الأوَّل مُلخَّصَ تاريخ حياتي في صِباي قبل هجرتي من فلسطين وعنوانه 'أيَّامُ الصِّبَا، وأوضحتُ في القسم الثاني ماشاهدتُه في رِحلتي إلى نجد والحجاز وعنوانه 'في طريق الهداية، وبيَّنتُ في القسم الثالث مالمسته في ابْنِ سُعود نتيجة مقابلاتي له واتصالي به مدَّة إقامتي في الحجاز وعنوانه: «إيمان العين بعد الأذن، وتضمَّنت الخاتمة أثَرَ ماشاهدته من عبدالعزيز بن سعود وفي بلاده وسيطرةَ ذلك الأثر في نفسي وملازمتَه لي بعد مبارحتي تلك البلاد.

وأرجَو أن يكونَ جوابًا كافيًا للسّائلين، وأن ينفعَ الله به المتشكّكين والحائرين.

إنه الحب الصادق

أجلُّ العلم عن عقلٍ حليمٍ … وخيرُ الهَدْيِ عن قلبٍ سليمِ
وأسنَى النُّورِ ماهو مُستَمَدٌّ … من الآياتِ والذِّكْرِ الحكيمِ
وأجْدَى النَّاس بَحْثًا واجْتِهادًا … أُولُو الألْبَابِ والطَّبْعِ الكَريمِ
وأنزَهُهُم يراعًا من تَحَرَّوا … سبيلَ الحقِّ والنَّهْجِ القَويمِ
وإنَّ فتًى كريمَ النَّبْتِ يَنْمُو … على الأخلاقِ مِثْلَكَ ياتَميمي
صَدُوقًا دائِمًا قَوْلاً وفِعْلاً … ذَكِيًّا جَدَّ في طَلَبِ العُلُومِ
لَيَصْدُقُ في المَحَبَّةِ حِينَ يَهْوَى … وَكَانَ لِحبِّهِ أوفَى حَمِيمِ
وإنَّكَ إنْ تُحِبَّ مَلِيكَ نَجْدٍ … مَلِيكَ العُرْبِ ذَا الشَّأْنِ العَظِيمِ
فما أحْبَبتَ إلاَّ مَنْ أحَبَّتْ … قُلُوبُ المُتَّقِينَ مِنَ الصَّمِيمِ
فَهَلْ عَبْدُ العَزِيزِ سِوَى إمَامٍ … يَقُودُ إلَى الصِّرَاطِ المُستَقِيمِ
أَقَامَ الدِّينَ في زَمَنٍ لَدَيْهِ … يَعِيشُ الدِّينُ كَالرَّجُلِ السَّقِيمِ
وَأحْيا السُّنَّةَ الغَرَّاءَ فِينَا … وَحَارَبَ كُلَّ تَخْرِيفٍ ذَمِيمِ
وَقَدْ نَشَرَ العَدَالَةَ فِي حِمَاهُ … فَبَاتَ حِمَاهُ فِي أَمْنٍ مُقِيمِ
وَأشْرَقَ بِالهِدَايَةِ بَعْدَ دَهْرٍ … دَهَى الإسْلاَمَ بِالْجَهْلِ الْعَمِيمِ
فَبَصَّرَهُمْ بِدِينِهِمُ وَكَانُوا … فَرِيسَةَ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمِ
وَهَلْ عَبْدُالْعَزِيزِ سِوَى مَلِيكٍ … كَرِيمِ النَّفْسِ ذِي قَلْبٍ رَحِيمِ
جَوَادٌ مَالَهُ فِي الجُودِ نِدٌّ … سَنِيٌّ ذِكْرُهُ فَوْقَ النُّجُومِ

زَعِيمٌ لِلْعُرُوبَةِ قَد حَبَاهَا ... بِمَا لَمْ تَلْقَ يَوْمًا مِنْ زَعِيمِ
قَوِيُّ الْعَزْمِ مِقْدامٌ مَهِيبٌ ... لَدَى كُلِّ الأَحِبَّةِ وَالْخُصُومِ
فَرِيدُ الْعَبْقَرِيَّةِ مُسْتَنِيرٌ ... رَجَاءُ النَّاسِ فِي الأَمْرِ الْجَسِيمِ
بِهِ تَعْتَزُّ دَولَتُهُ اعْتِزَازًا ... وَكَانَتْ قَبْلُ كَالْجَسَدِ الهَضِيمِ
بَنَى مَجْدًا لَهَا فَوْقَ الثُّرَيَّا ... يشِيدُ بَمجْدِ أسْرَتِهِ القَدِيمِ
مَضَى فِي عَهْدِهِ الإِصْلاَحُ قُدمًا ... فَأصبَحَتِ الجَزِيرَةُ فِي نَعِيمِ
لَقَدْ أنْصَفْتَ قَلْبَكَ يا تَمِيمِي ... بِوَضعِ هَوَاهُ فِي سِفْرٍ وَسِيمِ
وَإنِّي قَدْ أَلُومُكَ لاخْتِصَارٍ ... وَمَا الإِيجَازُ بِالشَّيءِ الْمَلُومِ
فَهَذَا السِّفْرُ أيْسَرُ مَا يُؤَدَّى ... بِهِ الإِعْجَابُ بِالمَلِكِ الْعَلِيمِ
وَلَكِن ربَّ لَفْظٍ قُلْتَ أغْنَى ... بَيَانًا عَنْ مَقَالٍ مِنْ كَلِيمِ

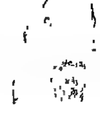
عبدالعزيز رجال
رئيس الإيرادات بالخاصة الملكية بالقاهرة

أيَّامُ الصِّبَا

صدمة

في سنة ١٣٣٦هـ (١٩١٨م)، وفي أرض المسجد الأقصى الذي بارك الله حوله، وأَسْرَى إليه برسوله محمدٍ صلّى الله عليه وسلَّم ليُرِيَهُ من آياته، غاض نبعٌ كان يسقي أرضًا طالما تمتّعتُ بخيراتها، ويُرَوِّي حديقةً كثيرًا ماقطفتُ من ثمارها واستظللتُ بأشجارها، فقدتُ في ذلك العام أعزَّ ما يفقده صبيٌّ لم يتجاوز اثني عشر ربيعًا، انتقَلَتْ والدتي إلى رحمة ربِّها، ولم يبق لي إلاّ عطف أبي الذي كان يحبُّني حبًّا جمًّا يفوق حبَّه لأخي الأكبر ولأخواتي الثلاث لأنّي كنتُ متفوقًا على أقراني؛ بل على أخي الذي يكبُرُني بخمس سنين في المكتب السّلطاني الذي أسَّسَتْه الحكومة التركية في القدس، وحتَّمَتْ تدريسَ جميع العلوم باللغة التركية تنفيذًا لسياسة تتريك العرب، حتى أنَّهم كانوا يمنعوننا من المحادثة باللغة العربيَّة منعًا باتًّا. وكان المكتب السُّلطانيّ هذا مُؤلّفًا من اثني عشر فصلاً: أربعة للتعليم الابتدائيّ، وأربعة للتعليم الثانويّ، وأربعة للتعليم العالي، وكنت في قسمه الداخليّ، وما أن نُقلتُ إلى الفصل السّادس حتى قُوِّضَتْ أركانُ الإمبراطوريَّة العثمانية، ودخل اللورد اللنبي مدينة القدس مُعلنًا انتهاء الحروب الصَّليبية.

كان ذلك العام الذي تُوفِّيت فيه والدتي بدايةَ عهد الاحتلال البريطاني للبلاد المنسلخة عن الحكومة العثمانية، ولم يكد يمرّ على وفاتها بضعة أشهر حتى تغلَّبَتْ على والدي غريزة الرّجال وأخذ يبحث عن زوج، فاهتدى إلى آنسةٍ من عائلةٍ كريمة ببيت المقدس، وما إن مرَّت أيامٌ على بنائه بها



حتّى رأيتُ حبَّه لي يتحوَّل، وعطفَه عليَّ يضمحل، ورأفتَه بي تختفي، وقلبَه يقسو ويتحجّر.

مُشكلَةٌ

زَوجُ الأب وزوجُ الأم وأولادُ الزّوج، مشكلة اجتماعية حَارَ المصلحون في تعليلها، وعجزوا عن معالجتها، وستظل قائمةً ما دام الوالدان جاهِلَيْن بما فرضه الله عليهما من حقٍّ لفلذات كبِدَيهما.

ومع أني أميلُ إلى لوم الوالدين على كل ما يَعْتَوِر أولادهما من نقص خُلُقي، وإلى اعتبارهما السَّبب في ذلك النقص لأنه - كما ورد في الحديث - (ما مِنْ مَوْلُودٍ إلا وَيُولَد على الفطْرَةِ وأبَوَاهُ يُهَوِّدانِهِ أو يُنَصِّرَانِه أو يُمَجِّسَانِه) مما يجعلُ الوالدين مسؤولَيْن أمام الله وأمامَ الإنسانية وأمام الضمائر السَّليمة عن العناية بأولادهم والحدب عليهم وإكرامهم وتأديبهم وتهذيبهم وتعليمهم وتمهيد طريق مستقبل حياتهم، فإني أرى من الإنصاف أن يُشرك معهما في اللَّوم عاملٌ قويٌّ ليس في طوقهما الإفلات من دائرته ولا الخروج على إرادته، هذا العامل هو المجتمعُ الفاسدُ الذي لايخرج والدي ولازوجُه عن كونهما لَبِنَتَيْن في بنائه المتهدّم الذي أرجو أن يوفّق الله المصلحين العاملين إلى إعادة تشييده على أساسٍ متين.

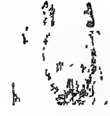
أمّا زوجُ أبي فقد كانت تستخدمُني سقّاء أنقلُ لها ماءَ الشُّرْب في صفيحتَيْن من صفائح الغاز هُيِّئتا تهيئةً خاصةً فصُنِعَتْ لكلّ منهما فوهةٌ ذاتُ غطاء، ورُكِّبَتْ في جنبين من جوانب كل منهما أربعُ حلقات من نوع حلقتها الوُسْطَى في كل جنبٍ حلقتان: واحدةٌ دون حافّتها العليا والأُخرى

فوق حافَّتها السُّفلَى، يوصل بينهما بحبلٍ تدخل فيه ذراعُ السَّقاء بحيث تكون الصفيحة على ظهره والثانية فوقها ... كنت بمجرد دخولي البيت بعد انصرافي من المدرسة أتسَلّم هاتين الصفيحتين لملئهما من حنفية الماء الكائنة بباب السَّاهِرَة ببيت المقدس، وكانت المسافة بين المنزل وهذه الحنفيَّة تزيد على الكيلو متر، وكان الطَّريق إليها منحدرًا ومنها إلى المنزل مصعداً، وطالما شاهدني والدي في إيابه من مركز عمله صاعدًا بهذا الحمل الثقيل في ذلك الطريق الطويل، فلا يتقطع قلبُه شفقةً على ولده ولا يثورُ لاضطهاد فلذة كبده، بل كان يرى في زوجه مقتصدةً مدبرة.

وكانت تضربُني لأتفه الأسباب، بل كانت والدتها وأخوها اللذان أسكنهما والدي معنا يضرِبَاني أيضًا، وإن أنس فلا أنسى ذلك اليوم الذي أَخَذَتْ فيه والدتها برأسي بين يديها وجعلَت تضربُ به عرضَ الحائط لسبب تافه لا أتذكّره، ولا ذلك اليومَ الذي ضربني فيه أخوها ضربًا مبرّحًا أمامَ الملأ في الطّريق من أجل مشمشة أكلتُها من مال أبي.

وأوغرَتْ صدرَ أبي عليّ فحرمَتْني من عطفه، ومنَعَتْهُ من القيام بواجب حق من حقوق الولد على أبيه وهو حق التعليم ...

كنت طالبًا بالمدرسة الرشيدية بعد إلغاء المكتب السلطاني، وكنت الأول في الفصل بصورة دائمة، وكان إسعاف بك النشاشيبي يُحَفِّظُني مقامات الحريري ويحدّد لي شهرًا لحفظ إحداها بمعانيها، ولكنّي كنت أحفظها في أسبوع واحد، وكان يوصي بي والدي بقوله: «انتبه إلى ولدك هذا فإنّك لوعُنيت به سيكون نابغة عصره»، وكنت علاوة على ذلك جوَّالاً ولاعبًا بفريق كرة القدم وعدّاءً أوّلاً وقفّازًا متفوقًا، ومع أنّ والدي كان يحضر



حفلة آخر السنة للألعاب الرّياضية، ويرى فوزي بالعَدْو والقفز ومختلف الألعاب، ويشاهد تسلّمي للأوسمة والجوائز ويفخر طبعًا لتفوق ولده في الألعاب كتفوّقه في العلوم ... رغم كل ذلك؛ احتجتُ يومًا للملابس الكشفيّة فذكرت لزوج أبي حاجتي إليها مساء؛ لأني لم أكن أجرؤ على مفاتحة والدي في أيّ شأنٍ من شؤوني، فوعَدتْ بمحادثته بشأنها وبنقدي الثمن في الصَّباح، ولكنه أصبح يقول لي: لاأريدك جوّالاً. فماطلتُ ناظر المدرسة في دفع ثمن الملابس، ثم وقف على سرّ المسألة فقدّمها لي مجانًا...

واحتجتُ يومًا للملابس الرياضيَّة فعرضْتُ الأمر عليها مساءً؛ فأجابني والدي في الصباح: لاأريدك لاعبًا. ومن جميل المصادفات أن المستر رُونَالْدْسْتُورْسْ حاكمَ القدس العسكريّ في ذلك الوقت زار المدرسة في ذلك اليوم نفسه وسأل أحدَ زملائي المدعوّ ممدوحًا الخالدي عن طريقة نفخ الكُرة، فأجابه جوابًا مبتورًا بقوله: أنفخها بالمنفاخ. فرفعت أصبعي. فأشار إليَّ الحاكم بالوقوف، فأجبته عن سؤاله جوابًا مفصّلاً ذكرت فيه أنّ الكرة مؤلفة من جزأين جزء خارجي مصنوع من الجلد له فتحةٌ ورباط يشبه رباط الحذاء، وجزء داخلي مصنوع من المطّاط له زائدةٌ تخرج من بين ثنايا فتحة الجزء الخارجي ويدخل فيها مبسم المنفاخ الذي يملؤها هواءً حتى تصبح صلبة، ثم تنزع هذه الزائدة من المنفاخ وتُثنى وتُربط بخيط، وتُدخل في الجزء الخارجي الذي تقفل فتحته بالرباط الجلدي، وعندئذ أقذفها بقدمي إلى الجوّ... سُرَّ الحاكم العسكريّ من إجابتي فأرسل أمينَهً في الحال إلى أحد مخازن الألعاب الرياضية وأحضر كرة قدم وملابس رياضية قدَّمها لي الحاكم هدية من عنده.

وكثيرًا ما كنت أترك مائدة الطعام قبل الكفاية، لأنها كانت تُقَرِّرُ لي كمية معينةً لا أتعداها ولا أجرؤ على طلب المزيد، بينما كانت تقفل السَّهْوَة التي لم تكن تخلو من خيرات كثيرة كالجبن والزيتون واللبنة المنقوعة بزيت الزيتون والمُرَبَّات وغير ذلك. وعندما خَلَّفَتْ أولادًا وتخلَّصَتْ من ولدَيْ زوجها بالطرد والحرمان ومن بناته بالزواج، رفعَت الحصار عن السَّهْوَة، وحطَّمَتْ مفاتيح خزائنها وكسرَتْ مزاليجها وتركَتْها مفتَّحة الأبواب لفلذاتها.

ولست مبرئًا نفسي من أعمال صبيانية ارتكبتها نتيجة هذا الضغط الذي ولَّد الانفجار، فقد كنت أبيع كتبي المدرسية أثناء الدِّراسة لأشتري بثمنها مُلَبَّسًا وحلَوى؛ لأنّي حُرمتُ من نفقة الجيب التي كانت مقررةً في حياة والدتي، وكانت يدي تمتد إلى أشياء تافهةٍ في البيت أبيعها بأبخس الثمن لأشتري به بِلَيَةً ألاعب بها أقراني وأغذّي به معدتي التي لم تكتف من غذاء البيت؛ وكان والدي يحاول إصلاحي بالضرب لا بالعودة إلى سابق العهد من إعزاز وإكرام، وذلك كله موافقة لهوى زوجه. حتى هان علي الهروب من بيت أبي إلى مدينة الخليل مركز أسرتي مشيًا على القدمين، والمسافة بين القدس والخليل ٣٦ كيلومترًا قطعتها في خمس ساعات، وكان ذلك أثناء العطلة المدرسية أول مرة، وفي المرة الثانية سهل عليَّ ترك المدرسة أثناء الدراسة وفررت إلى مدينة يافا مسقط رأسي حيث يقيم أحد أعمامي، والمسافة بين القدس ويافا ٦٥ كيلو مترًا قطعتها في نهار بطوله. أقمت عند عمّي بضعة أشهر، ولما قرب موعد افتتاح المدارس أعادني إلى القدس وحمَّلني كتابًا لوالدي يوصيه بي خيرًا، وبالرغم من أني لم أحضر امتحان آخر السنة، عدَّتني المدرسة ناجحًا ونقلتني إلى الفصل التالي مكتفية بامتحان نصف السنة.

ولما اشتد الضغط وكثرت الكلمات اللاذعة التي كنت أسمعها من أبي وَزَوجه وحماته ونسيبه، لجأت إلى ناظر المدرسة ورجوته العمل على استخدامي ولو ساعيًا بمصلحة البرق والبريد. ولما كان يعرف حقيقة أمري أشفق علي، وأخذني في اليوم نفسه إلى المدير العام للبرق والبريد، ودخل غرفته وتركني على بابها دقائق، ثم أمرت بالدخول فدخلت، وأشار إليّ المدير بذكر اسمي بالإشارات الكشفية فذكرته، فاعتبر هذا امتحانًا يخولني حق الدخول كتلميذ في مدرسة البرق. وبعد ثلاثة أشهر كنت مأمورًا للبرق في القدس، ثم بعد شهر واحد كنت معاونًا لمكتب بريد غَزّة.

طيش الشباب

لم تكن سنّي تتجاوز ستة عشر عامًا عندما نقلت إلى مدينة غزّة، ولم أكن تلقيت دروسًا في الحياة العملية، والاستقلال في المعيشة والاعتماد على النفس، ووجدتني محاطًا بفراغ كبير لايملؤه إلاّ رجل كوالدي الذي شعرت بالحاجة إلى نصائحه وتوجيهه في حياتي الجديدة، وقد اشتاقت النفس إليه وتاقت إلى لقياه بعد أشهر قليلة، فطلبت نقلي إلى القدس حيث يشغل والدي منصب مدير ماليتها، فرفض طلبي. فخيَّرتُ المصلحة بين نقلي وقبول استقالتي، فبَعثَتُ بالاستقالة إلى والدي وطلبت منه أن ينصحني حتى بالعدول عنها؛ لأنّ لي مستقبلاً حسنًا عندها ولكني أصررت على النقل أو الاستقالة فقبلتها.

ولما رجعت إلى بيت والدي رأيت الإعراض المتناهي والنقدَ اللاذع والكلام الذي يذيب الصخر. وكلما أويت إلى أحد الأقارب، لذعني لذعة كلامية دونها كثيرًا لذعات العقارب، فندمت على مابدر مني من تسرع وطيش،

ورجعت إلى مصلحة البرق والبريد تائبًا مستغفرًا، لكنها أَبَتْ قبولَ تويتي وغفرانَ ذنبي، وعَدَّت إصراري على الاستقالة خروجًا على نظامها، وهي غير مجبرة على تحمل نتائج دلال موظفيها، فلم ينفعني ندمي، وكان عليَّ أن أتحمل نتيجة هذا التصرف الغريب، وذلك الطيش العجيب.

خارج الوطن : الرحلة الأولى

ولما رفضت مصلحة البريد والبرق إعادتي إلى العمل، وكانت الإقامة بين أهلي وعشيرتي تقتضي الاستعداد لكل مايُوجَّه إليّ من قارص الكلام ولكل ماأُعامل به من إهانة وتحقير مما لاتتحمله النفس بحال من الأحوال، قررت مغادرة فلسطين إلى لبنان الشقيق لعلي أجد فيه عملاً يغنيني عن الناس، وكانت هنالك عقبة يجب تذليلها هي عقبة الحصول على جواز السفر، ولكني أزمعت عدم الاعتراف بالفواصل المصطنعة والحدود المزيفة التي فصل بها المستعمرون بين أبناء البلد الواحد والدين الواحد واللغة الواحدة والثقافة الواحدة، فغادرت القدس راجلاً إلى نابلس فجنين فحيفا فعكاء فالبصَّة، وهي آخر قرية في أراضي فلسطين تبعد عن عكاء حوالي عشرين كيلومترًا ويحتضنها جبل تقع على طرفه الأيسر نقطة حدود رأس الناقورة على ساحل البحر الأبيض المتوسط، ولكي أكون بعيدًا عن أعين جند الحدود، كان عليّ أن أصعد إلى قِمة ذلك الجبل لأنحدر منها إلى الأراضي اللبنانية. وقابلني أحد أهالي البصة خارجها فسألته عن بعد المكان الذي أكون آمنًا فيه خلف الجبل؛ فأجابني على الفور: شرب سيجارة، ولكن المسافة كانت ساعتين ونصف الساعة، وانحدرت إلى الطريق الساحلي الذي كان الجنود السنغال الفرنسيون يعملون على

تمهيده وتعبيده، ولما اتجه الطريق إلى اليمين في الداخل التزمت شاطئ البحر حتى وصلت مدينة صور التاريخية بعد العشاء فقضيت ليلتي فيها، وركبت صباح اليوم التالي إحدى مركبات الخيل التي كانت لاتزال من وسائل المواصلات إلى مدينة صيدا، وركبت مركبة أخرى منها إلى (بيروت) حيث نزلت فندقًا وطنيًّا أي رخيصًا، لأن اسم الوطن صغر في نفوس الشرقيين فأطلقوه على كل قديم بالٍ وفقير سيئ الحال.

فالأحياء الوطنية هي الأحياء الفقيرة البائسة ذات الحارات الملتوية والأزقة القذرة والدروب الخربة والأشرام والأكوام والأحواش التي لاتكنس إلا لانتقال جراثيم قاذوراتها وأتربتها إلى أجواف الناس، والمطاعم الوطنية هي التي تبيع الطعام الذي لايُسمن ولايُغني من جوع، والفنادق الوطنية هي التي تضم غرفًا يكاد هواؤها الفاسد يخنق النازلين، وهي التي تزحف جيوشها الجرّارة من البقّ والقمل والبراغيث المخندقة في أطراف الفُرُش وآكناف الأسرة على النائمين. ولوكانت لي كلمة في هذا الشرق العربي المسكين، لأنقذت اسم الوطن من هذه المسميات ولأطلقته على كل شيء جميل وعلى كل عمل جليل.

خيبة الأمل

نزلت في ذلك الفندق ذي الأجرة الزهيدة التي لاتتجاوز القرشين كل ليلة، وآخذت أبحث في النهار عن عمل؛ وأوّل ماإتجه إليه نظري دائرة البرق والبريد، فعثرت بأول حجر استعماري أَدْمَى آمالي وَحَطَّم خيالي، إذ كان الجواب الصريح أنّي فلسطيني غريب ولايمكن استخدامي في الحكومة اللبنانية، فاتجهت نحو الشركات والمحال التجارية فخاب الرجاء؛ ثم

آخذت أقطع أحياء بيروت غُدُوًّا ورَوَاحًا مفتشًا عن أي عمل جليل أو حقير دون جدوى، ومضت الأيام تلو الأيام، وتبخَّرتْ نقودي القليلة بين أجر نوم وثمن طعام، وعجزت عن دفع أجرة الفندق الزهيدة عن بضع ليال، وساءت بعد ذلك الحال ففقدت المأْوى ولوَّاني مغص الجوع حتى وفقت إلى عمل حقير في نظر الناس عظيم في نظري؛ لأنه أنقذني من البؤس والحاجة.

لقد اشتغلت أجيرًا عند كواء طرابيش بسوق المعرض مقابل لقمتي ونومتي وآجر قليل، وكانت مهمتي غسل الطرابيش وإحضار غذاء صاحب المحل من بيته الواقع في رأس بيروت، ثم أخذت أتمرن على تركيب شرَّابة[1] الطربوش وحياكة جلدته وكيِّه وتركيب خوصته حتى أتقنت هذه الصناعة في أقل من شهرين.

دموع الخجل

ودخل ذات يوم شاب وسيم الطلعة صالون الحلاقة التابعَ لمحل كي الطرابيش والمتصلَ به، وما إن جلس على المقعد حتى لاح له خيالي في المرآة فحولتُ وجهيَ عنه حتى لايعرفني؛ لأنه كان أحدَ زملائي في دائرة البرق والبريد بالقدس يظهر أنه قدم إلى لبنان لقضاء إجازته في ربوعه، ولكنه آخذ يدقق النظر في مقاطعي وحركاتي حتى تأكد من شخصيتي، فناداني قائلاً: «أيها الآخ».

قلت: «نعم» وقربْتُ منه بنصف وجهي لعلّي أخفي عليه فقال:«من أي بلد أنت؟». قلت «أرض الله واسعة».

---

(١) شرابة الطربوش: زِرّه.

قال:«ألست التميمي؟» وعندئذ انحدرت من مقلتي دموع الخجل، وغادرت المحل بالعجل، ولم أعد إليه إلاّ بعد ثلاث ساعات، فإذا بصاحب المحل يستقبلني استقبالاً حسنًا ويُغيِّرُ لهجته معي، وبعد أن كان يناديني بـ:ياصبي و ياولد، قال: تعال ياأخي، كيف ترضى لنفسك أن تشتغل بهذا العمل الصغير بينما أنت من عائلة كريمة ومثقف ثقافة لا بأس بها، وكنت مأمور برق ووكيلاً لمكتب بريد؟

قلت:أليس اشتغالي بهذا العمل الذي تعدّه حقيرًا بالنسبة لي أشرف من الاستجداء وقلة الحياء؟. وهل لوجئتك مستجديًا أو مستعطفًا وقصصت عليك قصتي أتصدقني لأوّل وهلة وتعطف عليّ بما أنا أهله في نظرك الآن؟ وإذا لم يصادف قدوم هذا الشاب اليوم هلاّ تظل تعاملني كأجير حقير وصبي ذليل؟

قال: والله إنّك لصادق، وحقيقة أنّنا في زمن ضاع فيه المعروف، ولكني بعد أن عرفت عنك ما قصه عليّ مواطنك، لا تتحمل أعصابي أن أستخدمك في هذا العمل، وأرجو أن تعدّ نفسك ضيفي منذ الآن.

وبعد أن كنت أحضر له الطعام من بيته، اصطحبني هذه المرة إليه، وأوصى أهله بي، وقصّ عليهم مَخْبَري، ومكثت ضيفًا عنده بضعة أيام ريثما هيأ لي أسباب السفر وكساني حلة جديدة، ونقدني مبلغًا لا بأس به واستأجر لي مقعدًا في سيارة متجهة إلى حيفا بفلسطين على أن تنزلني قبيل نقطة حدود رأس الناقورة.

من السجن إلى الوظيفة

وفي صباح ذات يوم من أواخر أيام صيف سنة ١٩٢٢م، ربيع الأول سنة ١٣٤١هـ أخذت مقعدي في السيارة ونزلت قبيل نقطة الحدود، واتبعت الطريق نفسه الذي دخلت منه الأراضي اللبنانية، وصعدت الجبل نفسه وانحدرت منه إلى قرية (البصة) ولكن الجَرَّة لم تسلم هذه المرة، إذ ما كدت أتعدّى هذه القرية في طريقي إلى عكاء حتى قابلتني دورية من جند الفرسان. أطلقوا لخيلهم نحوي العنان، وبادروني بالسؤال، لا عن الصحة والحال، بل سألوني: من أين وإلى أين؟ فصارحتهم أني قادم من لبنان عن طريق الجبل بلا جواز سفر، فما كان منهم إلا أن وضعوا بيدي القيد الحديدي وسلّموني لواحد منهم ساقني إلى عكاء وسلّمني لسجنها بعد العشاء.

قضيت ليلتي في ذلك السجن الشهير الذي كان قلعة من القلاع التاريخية ذات الماضي المجيد في الوقائع الحربية بين جند نابليون والحكومة العثمانية، ثم بين جند محمد علي باشا وعلى رأسهم نجله الأكبر إبراهيم باشا وبين أحمد باشا الجزّار. وفي صباح اليوم التالي أخرجوني مع الوارد الجديد من الجناة والمجرمين، ونظمونا في صفٍّ أمام غرفة مفتش السجن الأيرلندي، فخرج إلينا واستعرضنا، وأخذ يراجع أوراق كل مسجون ويوقع عليها ويأمر بإدخاله السجن، ولما بقيت وحدي قال: وأين أوراق هذا؟ قالوا: ليست له أوراق وإنما أَلْقَى عليه جندُ الحدود القبضَ وهو قادم من لبنان بدون جواز سفر، وعندئذٍ وجه إلي المفتش الحديث سائلاً بلغةٍ عربيةٍ مكسرة.



قال: أنت منين يا شاطر؟.

قلت بالإنجليزية: إنني فلسطيني غادرت بلادي إلى لبنان قبل ثلاثة أشهر بدون جواز سفر، وقد رجعت إليها الآن.

قال: إنك تتكلم الإنجليزية بطلاقة!!

قلت: لقد تعلمت في المدرسة الرشيدية وفي مدرسة البرق، وتمرنت على جميع أعمال البرق والبريد باللغة الإنجليزية.

قال: أو تكتب على الآلة الكاتبة؟

قلت: نعم بالعربية والإنجليزية.

وناولني كتابًا كتبته على الآلة الكاتبة.

قال إنني أخيِّرك بين أن تشتغل كاتبًا في السجن وبين تسفيرك إلى القدس على حساب الحكومة، قلت: بل أشتغل، وتسلمت عملي الكتابيّ وملابسي العسكرية التي لم أكن أرتديها إلا نادرًا، وأبديت نشاطًا كبيرًا حُزْتُ به ثقة المفتش فضم إليَّ عمل أمين مخزن السجن.

في الزنزانة

اشتهر أمري بين جند السجن وضباطه والمسجونين أيضًا، أما الجند والضباط فقد كان لا بد لهم من التودد إليّ نظرًا لمتانة مركزي عند المفتش ولثقته بي، وأما المسجونون فقد كنت أكرمهم عندما كنت أوزع عليهم

الفاكهة أو الحلوى مرة واحدة كل أسبوع، خصوصًا أولئك المحكوم عليهم بالسجن المؤبد أو بمدد طويلة بسبب الثورات بين العرب واليهود، وعلى الأخص ثوّار مدينة يافا التي ولدت فيها، إذ ثبت لي أنهم يذكرون جدّي الذي كان ضابطًا بها، ووالدي الذي كان كاتبًا بإدارة ماليتها أول عهده بوظائف الحكومة في زمن الترك، هؤلاء الأخيرون كانوا موضع إكرامي الزائد لدرجة أني كنت أبتاع لهم من جيبي الخاص ما يشتهون من طعام وفواكه وحلْوى.

وفي إحدى الليالي ظهرت في السجن حركة غير عادية، وكثر الصياح والضوضاء، وأطلقت الصافرات، وأسرع حرس السجن نحو مصدر الجلبة، فإذا بهذا المصدر هو غرفة أولئك الذين أخصهم بالإكرام، وبلّغت المفتش الخبر في بيته، فبادر إلى السجن حاملاً سوطه الذي طالما ألهب به ظهور المسجونين وأدمى أفخاذهم وورَّم أرجلهم، واتجه نحو تلك الغرفة فإذا به يرى المسجونين قد سَكِروا، فأخذ يخرجهم واحدًا بعد واحد، ويجلدهم بسوطه جلدًا مبرّحًا مؤلمًا ولكنهم كانوا صامتين لا يعترفون باسم الذي أحضر لهم الخمر التي ضبطت زجاجتها إلى أن أخرج أحدهم وكان ضعيف الجسم لا يتحمل الجلد وما إن نزل على ظهره أوّل سوط حتى استجار وأبدى استعداده للاعتراف، فأوقفوه أمام المفتش، فإذا به يشير إليَّ ويعترف بأني أنا الذي ناولتهم زجاجة الخمر، وأني أحضر لهم بين آونة وأخرى خيرات كثيرة مما يشتهون.

كان وقْعُ هذا الاعتراف عليّ كوَقْع الصاعقة، وكانت دهشتي له عظيمةً جدًّا، إذ إني لا أشرب الخمر ولا أعرفها ولا أفكر في إحضارها لأحد؛ بل أمقت شاربها فكيف توجه إليّ هذه التهمة الباطلة، وكيف يوجهها إليّ ناس

أحسنت إليهم ولست أريد منهم جزاءً ولا شكورًا؟، والحق أنّي أُصبت بدُوار وخِلتُ أنّي في منام لا في يقظة، ولم يثبني إلى رشدي سوى تمتمة المفتش بكلمات وجّهها إليّ تنم عن الازدراء والاحتقار.

قال: إذَنْ أنت الذي أحضرت الخمر وأسكرت المسجونين، لقد كنت مخطئًا حينما وثقت بك واعتمدت عليك.

قلت: أقسم أني لم أحضرها ولا أعرف شيئًا عنها.

قال: ألم تحضر لهم سردينًا وبرتقالاً وبقلاوة وكذا وكذا.

قلت: نعم.

قال: ما من أحد أحضرها غيرك.

والتفت إلى حرس السجن وأمرهم بوضعي في الزنزانة، وهي غرفة ضيقة مظلمة كانت حالتي فيها أبأس من أولئك المحكوم عليهم بالسجن المؤبد.

ثم توصل المحقق إلى معرفة بائع الخمر من الزجاجة المضبوطة فاستدعاه فاعترف بأنها مشتراة من محله، وأن أحد الجند من حرس السجن اشتراها منه، فعرض عليه جميع الحرس ووضعت بينهم ملابسي العسكرية، فاستخرج أحدهم ثلاث مرّات متتالية.

كان هذا الجندي من أهالي عكاء، وكان همزة وصل بين مسجون أجنبي استخدم قبلي في إدارة مخزن السجن وبين السوق، وكانت له فائدة مادية من ذلك، فلما وُكِّل إليّ أمر المخزن لم يبق محلاً لهذه الصلة، فاغتاظ،

وأخذ يتحين الفرص لكيدي والإيقاع بي، فلم يجد بابًا يدخل منه عليَّ إلا باب شفقتي على المسجونين البائسين المحرومين، فأحضر زجاجة الخمر لهؤلاء الذين أخصهم بالإكرام، وناولها لهم من بين قضبان نافذة غرفتهم مع إخفاء جسمه دون أن ينبس ببنت شفة، فظنوا أني المناول، وكان اعتراف أحدهم بناءً على هذا الظن.

نُزِعَ حزامُ هذا الجندي بأمر المفتش، ونَزْعُ الحزام معناه السجن، وَوُضِع في الزنزانة وأجري معه تحقيق دقيق، فاعترف بأنه الشاري، ولكنه زعم أني الذي أرسلته لشرائها، وأخيراً أفرج عني بعد قضاء شهرين في تلك الزنزانة، وما كان مني إلا أن غادرت مدينة (عكاء) رافضًا البقاء في العمل أو انتظار قبض راتبي عن المدة التي وُقِفْت فيها ظلمًا.

الرحلة الثانية

توجهت تَوّاً إلى بيت والدي عسى أن يؤويني بعد هذا الفراق والعذاب الأليم والدروس القاسية، ولكني ماكدت أدخل بيته في مدينة طولكرم حتى أخذَتْ زوجَتُهُ تُوبّخني وتُوجّه إليَّ كلماتٍ وإشاراتٍ لايطيقها الجماد، وكثيرًا ماكانت تتمثل بجزء من الأغنية التي مَطْلَعُها: شمّ الكوكايين خلاني مسكين، فكانت تقول لي:

كنت مستخدمًا، صاحب وظيفة، عملت عمله ماجاتش لطيفة؛ فلم أطق البقاء بضعة أيام، وتوسّلت بها إلى والدي في طلب بعض النقود التي تمكنني من الرحيل إلى أرض لاذلّ فيها، فكان الجواب سلبًا، واستشفعت بأصدقائه وأحبابه فلم تنفع الشفاعة، فخرجت لا ألوي على شيء قاصدًا

لبنان عن طريقي الأول، ووصلت بيروت، وركبت منها سيارة نقل إلى دمشق، وكان النظام يقضي بوقوف السيارات أمام مركز الشرطة لتسجيل أسماء القادمين، ولم أُنبَّه إلى ذلك في الطريق كي أتمكن من مغادرة السيارة قبل دخول المدينة، فوجدتني أمام مركز الشرطة يسألونني عن اسمي وجنسيَّتي وتذكرتي الشخصيَّة، فلم أجد مفرًّا من الإقرار بالواقع، فزُجّ بي في السجن، وقرّروا نفيي من البلاد السّورية مع بعض المبعَدين من الأرمن غير المرغوب فيهم.

وفي يوم من أيام أواسط سنة ١٣٤١هـ وأوائل سنة ١٩٢٣م، نُظمت وهؤلاء المبعدون في سلسلة حديدية، وسيق بنا من أحد شوارع دمشق يتقدّمنا فارس ويعقبنا آخر، ولمَّا مررنا عن محطة القدم أدركنا أنّه يُرادُ إبعادُنا خارجَ الحدود السّورية من ناحية شرق الأردن، وقد رجونا حارِسَيْنا أن يفكّا قيدنا ووعدناهما بألا يحاول أحدنا الفرار، فأجابا طلبنا، ومازلنا نقطع المسافات نهارًا ونبيت في المكان الذي نمسي فيه حتى وصلنا مدينة درعا وهي ملتقى الخطوط الحديدية المتجهة إلى عمّان عاصمة شرق الأردن وحيفا ودمشق. وبعد إقامتنا يومين في سجن دَرْعَا ساقنا حارس واحد إلى حدود سوريا – شرق الأردن على مسافة قصيرة من درعا حيث تركَنَا وشأننا، فواصلنا السَّير في أراضي شرق الأردن وبِتْنا في إحدى القرى، واستأنفنا السَّير صباح اليوم التالي حتى وصلنا مدينة إرْبِد، حيث اشْتُبه في أمرنا وأُلْقِي القبضُ علينا من جديد، وحُقّق معنا، وزُجّ بنا في السجن أيامًا، ثم ساقونا بحراسة جُند من الفرسان إلى جَرَش فعمان. وبعد أيام ساقونا إلى السَّلْط ومنها إلى أرِيحا حيث سلّمونا إلى حكومة فلسطين، ومن أريحا أرسلونا إلى القدس، وهناك وجد الأرمن من يكفلهم فأخلي سبيلُهم، وأُرسلت إلى

مدينة الخليل مركز أسرتي حيث أخلي سبيلي بضمانة أحد أقاربي. وانتهت هذه الرحلة الفاشلة بشرها دون خيرها بعد أن قضيت حوالي ستة أشهر في سجون سوريا وشرق الأردن وفلسطين.

تنكر الأقارب

ومع أن أسرتي من أكبر الأسر الفلسطينية وأعرقها مجدًا وعروبة وأكثرها عددًا؛ فإنها مفكّكة العُرى مقطّعة الأوصال. لاتجمعها صلة الرحم، ولاتربطها وحدة الدم، وذلك تبعًا لتفكّك عرى المجتمع الإسلامي الفَاسد المنهار.

كان الأقربون من أفراد أسرتي ينظرون إلي النظر الشزر، وكنت إذا لجأت إلى أحدهم ليلةً يضيق بي ذرعًا ويعدّ قدومي عليه نكبةً من نكبات الزمن؛ بل كانوا جميعًا يضربون بي المثل في الشقاوة، ويحذّرون أولادهم من مثل مصيري؛ وكنت إذا لجأت إلى خالي الأكبر المعروف بالتّقوى والصّلاح، والذي حرمني وأخي وأخواتي من حق والدتنا في ميراث أبيها، إذ تحايل هو وجدَّتي على والدتي وخالَتَيَّ، فتنازلن كلّهن عن حقهن له ولأخيه الأصغر في آخر أيام حياة والدتي بموجب مبايعة صورية؛ كنت إذا لجأت إلى خالي هذا في بستانه المسمّى بالبُوَيْرَة على مسافة ساعة من مدينة الخليل، ألاقي منه ومن زوجه عمَّتي عطفًا مشوبًا ببعض الاشمئزاز والمضايقة، فكما أنه لايستسيغ إطعام الطعام لأيّ نازل عليه مالم يُؤَدّ الصلاة؛ فإنه لم يكن يرضى بأن يقيم عنده إنسان أيامًا يُسقى فيها ويُطعم من ماله دون عمل مقابل، كان خالي هذا بمجرد نزولي عليه يستخدمني في عمل شاقٍّ لم أتعوده ولا أطيقه كبناء الجدران والعزق بالمِسْحاة وتقليم الكَرْم وحصْد

الحبّ، وغير ذلك من الأعمال التي كان باطنا كفيّ يتدرّنان منها، كما أنه كان يضايقني كثيرًا بطلب إقامة الصّلاة التي كنت أتهرب منها، فَمللْتُ هذه الحياة الخشنة القاسية ورحلت إلى والدي مرة ثانية أملاً في عطفه وشفقته، وحملت معي عددًا من البيض ابتعته من قرية مررت بها قبل وصولي مدينة طولكرم واتجهت إلى المنزل، ورقيتُ المَرْقَى، وطرقتُ الباب، فردّت زوج أبي: من؟ فأجبتُها، فعرفَتْ صوتي، وأبَتْ فتح الباب، وأسرعَتْ إلى والدي تخبره بمقدمي، فقرب من الباب وسأل بلهجة شديدة: من؟. قلت بصوت المتضرع الذليل:أنا ياوالدي. فقال بقسوة أنا ماليش أولاد. فرجعت أدراجي وقد اسودت الدنيا في عينيّ، وسقطت صرة البيض من يدي، فتدحرج على المرْقَى وتكسر، وقسا قلب والدي وتحجّر، وهبطت لاأعرف وجهة أُولِّي نفسي شطرها في ذلك الليل البهيم، فقصدت حديقة البلدية ونمت تحت إحدى أشجارها في ليلة قارصة.

الرحلة الثالثة

غادرت طولكرم هائمًا على وجهي في أواخر سنة ١٩٢٤م (أواسط سنة ١٣٤٢هـ) وأخذت أجوب قرى جبل نابلس أقضي في كل قرية يومًا أنزل فيه دار ضيافتها التي يتناوب أهل القرية إطعام الضيف النازل فيها، وكنت أسمع أنّ الشريفَ حسينًا ملك الحجاز قد جاء إلى عمان وأعلن نفسه خليفة للمسلمين، فبايعه أهالي شرق الأردن وبعض السوريين والفلسطينيين، وأنه ماكاد يرجع إلى الحجاز بعد هذه البيعة حتى هاجمت قوات ابن سعود بلاده واحتلت الطائف وزحفت إلىمكة، فغادرها الخليفة الجديد بعد أن تنازل عن الملك لولده الملك عليّ. وسمعت أن بعض

السماسرة وصلوا إلى فلسطين، وأخذوا يحثون شبابها على التطوع في جيش الشريف بمرتب مُغر، ويقومون بدعاية واسعة النطاق ضد الوهابيين، ويُمَنُّون المتطوعين بمستقبل باهر في المملكة العربية الهاشمية، ويصورون لهم جيش الوهابيين بأن الفوضى تدب في جوانبه والانحلال يتخلل حواشيه، وأنه لايلبث أن يُهزم بضربة واحدة قاصمة، فلاتقوم له بعدها قائمة، فاغتر الشباب بهذه الألفاظ المزوّقة والدعاية المنمقة، وبالذهب الهاشمي الوهّاج الذي سيملأون به جيوبهم ويفرحون به قلوبهم، فأقبل بضع مئات منهم على التطوّع بوازع الحاجة بسبب الفقر والبؤس والبطالة وهم الأكثرية، أو بدافع المبدأ والعقيدة وهم الأقلية، شأنهم في ذلك شأن المتطوعين في الجيوش الأجنبية، وفي مفتتح سنة ١٩٢٥م، أواسط سنة ١٣٤٣هـ اتجهت إلى عمان وتقدمت لمركز التجنيد فجندني أمين بلول، وأرسلني مع فريق من المتطوعين بالقطار إلى معان وعلى ظهور الإبل منها إلى العقبة حيث وجدنا الشريفَ حسينًا قد وصلها بعد تخليه عن الملك والخلافة؛ وركبنا الباخرة رَضْوَى إلى جدّة، ونزلنا ثكنتها العسكرية.

وكانت مدينة جدة محاطةً بأسلاك شائكة على بعد خمسة كيلومترات، وكانت جيوش ابن سعود قد عسكرت في الرغامة والوَزِيرِيَّة، وكانت تدور بعض المناوشات بين طلائع الجيشين، ولم يكن في جيش الملك علي سلاح للإشارة، وعلم تحسين باشا الفقير وزير الحربية أني ملم بالإشارات الكشفية والبرقية، فعينني معلمًا للإشارة، وانتخب لي عددًا لايجاوز الثلاثين جنديًّا من الملمّين بالقراءة والكتابة لتعليمهم.

وكانت الفوضى ضاربةً أطنابها في هذا الجيش، وقد خابت آمال المتطوعين، فلم تدفع لهم رواتبهم عن بضعة أشهر، وكان عددهم يتناقص

كلّ يوم إما بسبب المناوشات أو بسبب الأمراض، وأذكر شابين شقيقين من قرية طوباس في جبل نابلس جُندلا وأحدهما فوق الآخر في وقت واحد.

ولم تكن جدة تخلو مما اصطلح المتحاربون في هذه الحرب العالمية الضروس على تسميته (الطابور الخامس)، فإن أحد أهالي جُدة الذي تعدّدت مجالستي له وقت فراغي في أحد المقاهي خارج الباب الجديد، والذي لم أحاول معرفة اسمه مع الأسف الشديد، صارحني يومًا بأنه تفرس فيّ الذكاء لأول مقابلة ثم اعتقده فيّ بعد تعدد المقابلات، وأنه يريد أن يفاتحني في أمر يطلب وعدي بكتمان حديثه معي بشأنه، فوعدته بذلك.

قال: ماسبب مجيئك إلى هذه البلاد مخاطرًا بحياتك وشبابك؟

قُلت: الجهاد في سبيل الله، وقتال هؤلاء القوم الضالين، الذين هدموا قبور الصالحين، وأنكروا رِسالة خاتم النبيين، وكَفَّرُوا كل من صلّى عليه وسلّم. قلت هذا وأنا والله لم أكن أفقه شيئًا من ديني، وكنت أتهرب من الصلاة؛ بل كان الفسق والفجور وشرب الخمور منتشرًا في الجيش الذي كنت متطوعًا فيه.

قال: إنك يابُنيَّ واهم، وقد غرّر بك القوم، وأنا ناصح لك، فضع عقلك في رأسك، إنَّ الذين جئتَ متطوعًا لمحاربتهم مسلمون مؤمنون، ولو قتلتَ أحدًا منهم أثِمْتَ، وإن قُتلت ذهب دمك هدرًا.

لقد أثَّرَتْ فيك يابُني دعاية هؤلاء، ولم تعرف شيئًا من حقيقة أولئك، إنهم ليشهدون أن لاإله إلاّ الله وأن محمدًا رسول الله، ويُصلُّون عليه ويُسلّمون، أما بناء القبور فلم يأمر به الإسلام بل أمر بهدمها، وهذا

الشريف الذي جئت للمحاربة في صفه منعهم من حج بيت الله بضع سنين، وتحكم فيهم تحكم السيد في مولاه فهذه نصيحتي إليك وهي علي واجبة، وأنا والله خائف عليك من سوء العاقبة.

شكرت هذا الرجل الذي سرى أثر حديثه في نفسي سريان الدم في عرق الإنسان، فقدمت استقالتي لوزير الحربية فرفضها رفضًا باتًّا بعد أن استدعاني ونصحني، وشوّق إليّ البقاء لأن النصر أصبح قاب قوسين أو أدنى، وسندخل مكة قريبًا فاتحين، محلّقين رؤوسنا ومقصّرين، فلم يثنني كلامه عن عزمي، وقدمت استقالتي للملك علي الذي حوّلها بتأشيرة منه إلى وزيره فناداني موبخًا؛ لأني تخطيته إلى الملك ومهددًا بالسجن العسكري إن لم أعدل عن فكرة الاستقالة، فتظاهرت بالعدول ولكني التجأت إلى القنصلية البريطانية طالبًا حمايتي وإعادتي إلى بلدي بوصفي فلسطينيًّا، فتدخلت القنصلية في الأمر، وقبلت الاستقالة وغادرت جُدة على الباخرة البُرُلُّس إلى السويس، ومنها بالقطار إلى طولكرم بفلسطين، وذهبت إلى بيت أبي الذي كتبت إليه من جدة أُعلمُه بتطوعي، عسى أن يكون قلبه قد لان، أو يكون الأوان قد آن، لأن يعطف ويشفق بعد أن ألقيت بنفسي في أتون من النار، لكني وجدت الإعراض التام وعدم الاهتمام، فرجعت أدراجي إلى صرفند مقرّ قوّة الحدود الفلسطينية، فاستخدمت بها كاتبًا، ونقلت إلى سَمَخ على شاطئ بحيرة طَبَرِيًّا ثم إلى المطِلّة أثناء اشتعال الثورة السورية.

ومع أن المآسي الماضية كانت كافيةً لثباتي في عملي الجديد، فإني لم أكن أنوي البقاء فيه، وكانت نفسي تحدثني دائمًا بالقيام برحلة إلى نجد كي أقف على حقيقة النجديين وعقائدهم، ولأعرف مبلغ صحة حديث ذلك

الناصح الجُدّي الذي أثّر حديثه فيَّ ذلك التأثير السِّحري، فقد أخذت أشعر بقوة خفِيَّة تدفعني إلى تعلم أحكام الدين الذي أنتسب إليه وأتسمى بأحد أسماء المنتمين إليه.

ولما اختمرت في ذهني فكرة الرحيل إلى نجد، تركت عملي واتجهت إلى شرق الأردن، وتعرفت بمثقال باشا بن فايز زعيم قبيلة بني صخر، فاصطحبني إلى قريته أمّ العَمَد حيث كنت أعلم ولده نايفًا بعض مبادئ اللغة الإنجليزية والحساب وغير ذلك من العلوم، وأبديت له رغبتي في السفر إلى نجد، فوعدني باصطحابي معه عندما يرحل مع قبيلته إلى وادي السَّرْحَان شتاء ذلك العام، لكن وقع مالم يكن في الحسبان؛ فإن حكومة شرق الأردن كانت تطالب مثقال باشا بالضرائب المفروضة على أرضه ومواشيه، وأرسلَتْ قوةً من الفرسان لتوقيع الحجز على القرية الواقعة على مرتفع من الأرض، وكاد يقع بينها وبين رجال ابن فايز مايؤسف له، ووقع بين مثقال باشا والأمير عبدالله وبينه وبين بيك باشا سوء تفاهم أدَّى إلى اعتقاله فاعتقدت أنه لن يرحل إلى وادي السَّرْحَان ذلك الشتاء ورجعت إلى عمان واستخدمت مأمور مَقْسَم للهاتف بإدارة البرق والبريد والهاتف ابتداءً من ٥ نوفمبر سنة ١٩٢٦م، ٣٠ ربيع الثاني سنة ١٣٤٥هـ.

في طريق الهداية

عثرات

لم يكد يمضي شهران على استخدامي بإدارة البرق والبريد والهاتف بحكومة شرق الأردن حتى علمت أن مثقال باشا بن فايز قد رحل بقبيلته إلى وادي السرحان داخل الأراضي النجدية، فعزمت على الهجرة، واشتريت الملابس العربية الخارجية، المؤلفة من الثوب والعباءة والعقال والكوفية[1]، وجمعت ماكان عندي من الملابس الأخرى.

وفي أوائل رجب سنة ١٣٤٥هـ ، أوائل يناير سنة ١٩٢٧م. استأجرت سيارة إلى قرية القَسْطَل المجاورة للخط الحديدي الممتد بين عَمَّان ومَعَان، وسرت منها متجهًا نحو الشرق، ووصلت حيًّا مِنْ أحيَاءِ العَرب قضيت ليلتي عندهم، واستأجرت من أحدهم أتانًا، واتفقت معه على أن يوصلني مخيم أحد مشايخ بني صخر في طريق قريّات الملح.

وبعد أن كنت أمتطي صهوة فرس تدعى الصَّقْلاَوِيَّة خصَّصها مثقال باشا لركوبي لما كنت مقيمًا في قريته أُمّ العمَد، أصبحت في اليوم التالي راكبًا الأتان، فانطبق عليّ قول القائل:

ياشبابًا مضى وشَيْبًا أتانا ... قد ركبنا بعد الحصان أتانا

(١) الكوفية هي : الغترة عند النجديين، والصماوة عند الحجازيين، والحطة عند عرب فلسطين.

وكان صاحب الأتان رفيقي ودليل طريقي، وما انتصف النهار حتى شاهدنا رَجُلَيْن يحاذياننا على رأس المرتفعات الممتدة على طول الوادي الذي كنا نسير فيه، ورأينا منهما مايريبنا، فوقع الرُّعب في قلوبنا، ولكي نختبر أمرهما ونمتحن قصدهما، جلسنا في ذلك الوادي بعد أن دفنت نقودي. ولم نكد نستريح حتى رأيتهما يهبطان علينا فأدركت أننا مقصودان، وما اقتربا منا حتى صاح أحدهما:

اقْشط وقال الآخر: ارْمِ الهُدُوم وكَانَا مُسَلَّحَين وكنا أعْزَلَيْن، وأمراني بالابتعاد عن المتاع فَأذعَنْتُ وبخلع ملابسي فأَطَعْتُ، وليتهما رضيا لي الاحتفاظ بما يستر عورتي، أو يحفظ علي صحتي؛ بل أَصَرًّا على أن أتعرَّى كيوم ولدتني أمي، فتمنيت لو أن أمي لم تلدني؛ لأني لم أكن في جنة حتى أَخْصِفَ عليّ من ورقها أو أختبئ بين أغصانها بل كنت في صحراء جرداء، وأرض بيداء، والفصل شتاء، فجلست القرفصاء، وقلت لهما: حرام عليكما، استرا عورتي، وارحما غربتي ولكنني كنت أصرخ في الوادي، ولادين لمن أُنادي، إلاّ أنّ أحدهما خلع ثوبًا قذرًا قَمِلاً كان عليه ورمى به إليّ كأنه يعطف عليّ. ولما لم يعثرا على النقود بين الملابس والمتاع.

قال أحدهما: وين الدّراهم؟.

قلت: مامعي دراهم.

قال الآخر: تكذب احنا عارفين أخبارك، والله إن ماكنت تجيب الدراهم لنقتلك ونشق بطنك ونخرجها منه، أنت بلعتها؟ قلت: لابلعتها ولاعندي منها شيء ولم أدر إلاّ وقد ألقي بي على الأرض، ووضع السيف على رقبتي،

وكاد يجزّها، فأدركت آنئذٍ أن الروح حلوة والحياة عزيزة، وقلت: اتركاني وأنا أجيب لكم الدّراهم، فتركاني وأرشدتهما إلى المكان الذي دفنت فيه النقود، فأخذاها، وخلّيا سبيلي أما صاحب الأتان فقد كان مُسِنًّا عاجزًا عن مناصرتي، ولم يكن في استطاعته عمل شيء غير الفرار أثناء اشتغالهما بسلبي، ولو لم أكن أحمل نقودًا في ذلك اليوم لاجرم أنهما كانا لايترددان في قتلي والتمثيل بي ظنًّا منهما أني ابتلعتها.

ولما وجدتُني وحيدًا عاجزًا عن التقدم في صحراء لاأعرف مفاوزها، عدت من الطريق الذي جئت منه ووصلت بعد العشاء قرية اللُّبَّن، فوجدت فيها رجلاً تركيًّا متخلفًا عن الجيش التركيّ بعد الحرب العظمى الماضية يدعى محمدًا، واشتغل خادمًا عند عواد السّطّام بن فايز أخي مثقال باشا بن فايز، وقد سبق أن تعرفت به لما كنت مقيمًا في أمّ العَمَد وكان سيده ضاربًا أطناب خيامه حولها. وجدته يتأهب للرحيل بقافلة لسيده في وادي السّرحان، فقصصت عليه ماجرى لي في ذلك اليوم، فأشفق علي، وألبسني ثوبًا من عنده، ووعد باصطحابي معه، ولفت نظري إلى أن سلبي كان باتفاق اللصَّيْن مع صاحب الأتان.

وفي اليوم الثامن من شهر رجب سنة ١٣٤٥هـ، ١١ يناير سنة ١٩٢٣م غادرت القافلة قرية اللُّبَّن، وأركبني محمد بعيرًا مُحمَّلاً حنطة، ولم نكد نتخطى سكة الحديد حتى داهم رجلان مسلَّحان مُؤخَّرة القافلة، وقطعا منها بعيرًا يحمل دقيقًا زعمًا أنه مقابل دين لهما عند عوَّاد السَّطَّام صاحب القافلة، وهدّدا من يعارضهما بالقتل. والغريب أنَّ العشرين رَجلاً المرافقين للقافلة كانوا عُزَّلاً، فلم يستطيعوا إنقاذ البعير وحمله إلاَّ أنَّ محمدًا التُّركيَّ لحق بالمغتصِبَيْن، وأمكنه الاتّفاق معهما على تحكيم رجال



مخفر قرية القَسْطَل الذين سلموه البعير دون الحمْل، ولحق بنا صباح اليوم التالي حيث انتظرناه في مكان يدعى الفالج في طريق قريات الملح.

وفي ٩ رجب سنة ١٣٤٥هـ، ١٣ يناير سنة ١٩٢٧م استأنفنا السير إلى المرِيسِيَّات وبتنا فيها.

وفي ١٠ رجب سنة ١٣٤٥هـ، يناير سنة ١٩٢٧م غادرنا المرِيسِيَّات ومررنا عن بنايا فارس وقيَّلنا على ماء الضَّبْعِ وسَرَيْنَا منه إلى المَحْزوق.

وواصلنا سُرَى تلك الليلة بسير نهار ١١ رجب، ١٤ يناير ووصلنا بعد المغرب قرية كاف إحدى قريّات الملح ومركز أميرها.

نقطة التحول

لم تكن تغمض لنا عين ولايسكن لنا روع ولا يهدأ لنا بال في تلك اللّيال الثلاث التي قضيناها، وكان القوم يمشون كأنَّ على رؤوسهم الطير، فلا حادٍ يحدو ولاشادٍ يشدو، وكانوا إذا رأَوا أثرًا لخُفٍّ أو حافرٍ قالوا هذا أثر الغزاة وغيَّروا طريقهم، وإذا رفع أحدهم صوتَه لعنوه، وإذا رغى البعير سبُّوه خشية أن يسمعهم الغزاة فيداهموهم. وماكدنا نصل إلى الأرض النجدية حتى أخذت الإبل تسير حثيثًا على صوت الحادي، وشدو الشادي يقول:

هَـلاَ هَـلاَ يـالِـجْـنِـيـديَّـه[١] زِينة[٢] بَليّه[٣] دَنَادِيش[٤]

(١) أهلاً أهلاً بالجندية.

والـنَّـهـد يَـا بِـيض قِـمْـريَّـه   يَضْفِنْ(٥)   عَلَيه الـعَكَارِيش(٦)

وثانٍ يقول:

رُوحِي غَدَتْ(٧) مابَجَابي(٨) رُوحْ   يَـامِـينْ يُـرَدَّ الخَبَـر بـيَّ(٩)
لاقَـالُـوا حَـيّ وَلاَمَـذْبُـوحْ   وَالْـخَـبَـر صِـوِيبْ أَلْمَانـيَّة

وآخر يقول:

هَـاتِ الـبَـارُودْ يَـاحَـمَـدْ   هَـرْعَى الـطَّـمَعْ بِامّ الـعَمدْ(١٠)
أُمّ الـعَـمَـد بِـنْـتْ طَـمُـوحْ   وِرْشُـوشِـهَـا دَم الْـوَلَـد

(٢) جميلة.

(٣) بدون.

(٤) حلي.

(٥) تتدلى.

(٦) جدائل الشعر. يقول: مرحباً بالجندية الجميلة بلا حلي التي يشبه نهدها بيض الحمام القمري وقد تدلت عليه جدائل الشعر.

(٧) ذهبت.

(٨) مابقى.

(٩) من ذا الذي يخبر أهلي بي. يقول: لقد خرجت روحي فلم تبق بي روح، فمن ذا الذي يخبر أهلي بي، وقد قالوا ليس هو بحي ولابمذبوح ولكنه مصاب برصاصة بندقية ألمانية.

(١٠) البارودة: البندقية، هرعي: انظر. أم العمد: قرية مثقال. بنت طموح: صعبة المنال. رشوشها: مهرها. يقول: هات البندقية ياحمد فإنك ترى الطمع بأم العمد الصعبة المنال التي لا تقبل مهراً غير دماء الرجال.

ولاتَسَلْ أيها القارئ الكريم عن شعوري عندما رأيت هؤلاء الخائفين الصامتين المضطربين يُغَنّون ويُنْشِدون ويَصْخَبون، ويَدْعُون لأبي تُركي[1] لأنهم دخلوا بلاده الآمنة المطمئنة التي لايخشون فيها غازيًا يسلبهم ميرتهم ولا مداهمًا يغتصب ماشيتهم، مع أنهم ليسوا من رعاياه، وإنما يستظلون بظلّ رايته بضعة أشهر من كل عام يقضونها في وادي السَّرْحان للكلأ.

فلأوَّل شَدْوٍ سمعتُه، ومن أوَّل خطوةٍ خطوتُها في بلاد عبدالعزيز بن سعود، شعرت بتحول القلب نحوه، وأحسستُ بميل النفس إليه، واستسلمت لأولَى طلائع الغزو، وكدت أطير فرحًا وأرقص طربًا عندما رأيت خُفَرَ المِلْح في ضواحي قرية كاف، وفكرت في العُدول عن متابعة السير مع القافلة والالتجاء إلى الأمير لعلّه يرسلني مع بريد سريع إلى الجوف.

وفي نجد نظام يقضي على كل غادٍ ورائح بتقديم نفسه إلى أمير القرية أو البلد أو المدينة عند وصوله للسلام عليه، وعند مغادرته للاستئذان في السفر، مما يجعل الأمير واقفًا على سير الحوادث والأخبار، عالمًا بالداخلين والخارجين.

وتنفيذًا لأحكام هذا النظام، انتدَبَت القافلةُ بضعةً من رجالها للسلام على الأمير علي بن بَطَّاح، فصحبتهم إلى قصره، وسلمنا عليه، وبعد أن وجَّه لمندوبي القافلة بعض الأسئلة عن رحلتهم ووجهتهم، استأذنوا

(١) كنية جلالة الملك عبدالعزيز، وتركي بكره المتوفى في سنة ١٣٣٧هـ.

وانصرفوا، وتأخرتُ عنهم وتقدمتُ من الأمير، وأعلمته بغايتي وبغيتي فأجابني بأن البريد غادره منذ ثلاثة أيام، ولاينتظر توجّه بريد آخر قبل شهرٍ على الأقل، ونصحني باستئناف السير مع القافلة، لأنه علم أن مضارب مثقال بن فايز أصبحت قريبة من الجوف، فشكرته وانطلقت في إثر القافلة التي سبقتني إلى قرية منّوه[1] وباتت فيها؛ وفي ١٢ رجب، ١٥ يناير تركنا (منّوه)، ومررنا عن (إثْرَه)، وتغدَّينا على ماء (أقراجل) بعد مرورنا من (وادي الوَشْم) وأمْرَحْنا[2] في مكان واقع يمين جبل (المسْمَع).

وفي ١٣ رجب، ١٦ يناير غادرنا (جبل المسْمَع) ومررنا عن جبل (الشَّدَّاد)، وبين جَبَلَي (العَبْد) و(العَبْدة)، وبتنا عند ماءالمِعيصِير، وفي ١٤ رجب، ١٧ يناير تركنا (المِعيصِير)، وتغدّينا في الخشابيّات، وسرنا حتى وصلنا قرب العِيلَي، وتعشَّينا هناك، واسترحنا إلى منتصف الليل، ثم سرنا قليلا، وبتنا شرق العِيلَي.

وفي ١٥ رجب، ١٨ يناير استأنفنا السير عند شروق الشمس، وتغذينا في شُعَيّب قريب من (أَبْرَق النَّبك) ثم سرنا إلى مابعد العشاء فوصلنا (ريع شَمَّه) وبتنا عند فريق من عرب السَّرْحان؛ وفي ١٦ رجب، ١٩ يناير غادرنا (ريع شَمَّه) ومررنا عن أرجيلة شَمَّة، ثم علمت أن مثقال بن فايز نازل (على خبرا الثَّايَا) فاتجهت نحوها بمفردي، فوصلت مضارب خيامه، وسلّمت عليه، فحيّاني ورحّب بي وخصّص الصَّقلاَوِيَّة من جديد لركوبي، واتخذني كاتبًا أكتب له كُتبه لعبدالعزيز بن مساعد أمير حائل ولعبدالله

(١) تتألف قريات الملح من ثلاث قرى «كاف» وهي مركز الأمير (ومنوه) (وآثره).

(٢) قضينا ليلتنا.

ابن عقَيّل أميرالجوف، كما اتخذني إمامًا أُصلّي به وبالمصَلّين من رجاله وهم قليل، ومن وقتها أخذتَ أواظب على الصلاة آليًّا دون أن أفقه شيئًا من أركانها وواجباتها وسننها ومبطلاتها.

ورافقت مثقال باشا يوم ظعنه ويوم إقامته، وقبل أن أسرد تواريخ الظعن وأماكن الإقامة يجدُر بي أن أذكر مالفت نظري من عاداتهم في ظعنهم وإقامتهم.

ناحية من عادات العرب

أهم ما يُعْنَى به البدويُّ الرَّاحلُ هو الماشية إذ هي مصدر سعادته ورفاهيته، فألبانها ولحومها غذاء وأصوافها وأوبارها رداء، وأشعارها وجلودها بيوت يستخفُّها يوم ظعنه ويوم إقامته في رحلتي الصيف والشتاء، وظهورها سفينة الصحراء تحمل أثقاله إلى بلدٍ لم يكن بالِغَه إلاّ بالعناء، فهو يُعْنَى بها أكثر من عنايته بنفسه، ويتحمل المشاق والمتاعب والأسفار في سبيل البحث عن الأرض الخصبة لرعيها ولو اضطر إلى اجتياز حدود بلاده إلى غيرها وإلى دفع الضرائب لحكومة تلك البلاد...

ووادي السَّرْحَان مشهور بالخبَارى[1] والواحات الخصبة، وقبائل شرق الأردن ترحل إليه شتاء كل عام من أجل هذا الغرض، وتدفع الزكاة الشرعية للمملكة العربية السعودية.

ويقيم البدو في المكان الذي يظعنون إليه مدّةً تترواح بين يومين وأسبوع بحسب نسبة خصب الأرض وكفاية الكلأ للماشية، ولايلبثون أن يغادروه إلى

(١) الخباري جمع خبراء، وهي القطعة الصلبة من الأرض التي تتجمع فيها المياه فتؤلف مستنقعاً.

مكان آخر. ومن أروع مناظر الحياة البدويّة منظر الإبل وهي عائدة إلى مراحها[1]، قطعانًا كلّ قطيع يتبع صوت حاديه، فقطيع يتبع صوت حادٍ يقول: دِحِلّبْ، دِحِلّبْ، دِحِلّبْ؛ وقطيع ثانٍ يتبع حاديًا ينادي: لعن اللهً أبوالحوف[2]؛ وقطيع ثالث يتبع آخر يصيح: هون راعي الجمال[3] وقطعان أخرى تتبع غير ذلك من الحِدَاء، فيَصِلُ كلّ قطيع إلى مراحه، ولا يتخلّف منه ناقة أو جمل بعد أن كانت كل هذه القطعان، مختلطًا بعضها ببعض في المرعى اختلاط الحابل بالنابل.

وكان مثقال باشا يصطحبني صباح كلّ يوم إلى مراح الإبل أثناء حلبها ليسقيني من لبنها. أمّا أيام الظعن فإنها تُحدَّد بناءً على تقرير رعاة الإبل بأن المرعى لم يعد نافعًا، وعندئذٍ يُصدر زعيم القبيلة أمره بالرحيل، فيُصبحون وقد فكّوا أطناب البيوت، وحملوها مع الأثقال الأخرى على ظهور الأنعام، وركب النساء في الهوادج والمحفّات، وامتطى الرّجال صهوات الجياد وظهورَ الذُّلُل، فيسبق الرجالُ النساءَ باحثين عن الكلأ، فإذا وجدوه ألقَوا عصا الترحال، وانتظروا وصول الحريم والحلال[4] .

ومن عاداتهم أنهم لايتناولون طعامًا يوم الظعن إلا بعد إلقاء عصا الترحال ولو دام السير النهار بطوله، والجوع مؤلم جدًّا في جوّ الصحراء.

(١) المراح: المكان الذي تبيت فيه الإبل قرب مضارب الخيام، والمكان الذي تبيت فيه القافلة في الطريق.

(٢) تحريف الحيف وهو الظلم.

(٣) هون: هنا.

(٤) الحلال: المتاع والأثاث.

ولم أكن أصبر عليه. وكان سلطان، ابن مثقال باشا الأكبر الذي تلقَّى العلم مدة في القدس، في غاية الظرف والكياسة، كان إذا أعلن والده الرحيل يجعل والدته تخبز له بضعة أرغفة من الخبز يصرّ بها شيئًا من التمر المعجون بالدُّهن، وكنت وإياه نُبطئ السير حينما يقرصنا الجوع يوم الظعن حتى نكون على مسافة من الرجال فنتناول طعامنا ونحمد الله ثم نَغْدُو ونلحق بالسابقين.

والسبب في أن سلطانًا كان يكرمني هذا الإكرام هو أننا كنا ذات يوم سائرين من قرية والده أمّ العَمَد إلى عمّان، وكان الوقت صبحًا، والخيل تعدو بنا ضبحًا، إذا به يُدْني فرسَه منّي، ويطلق من مسدسه طلقةً عند أذني، ولما أبديت استغرابي لتصرفه قال: أنا أمزح معك ولم يزل يقنعني أنه إنما يمازحني حتى لا أشكوه لأبيه، فيوبخه ويربّيه، ولما لم أَشْكُهُ كسبت صداقته واحترامه وإكرامه، ولم يكن سكوتي عن شكواه تورّعًا مني أو إقرارًا للحادث، وإنما كان خوفًا من أن ينقلب الهزل جدّاً خصوصًا وقد قيل لي إنّه قتل شخصًا بمثل هذا العَبَث، وقد علمتُ أنّه تُوفّي في رَيْعان الشباب رحمه الله وعفا عنه.

وعلى هذا النحو من عادات العرب في الظعن والإقامة، رحلنا في ١٨ رجب،٢١ يناير من خبرا الثّايا ونزلنا شرقيَّ خبرا السِّيب وغربيأَبْرَق الحُبِيلى. وفي ٢٥ رجب، ٢٨ يناير رحلنا من شرقي خبرا السِّيب ومررنا عن يمين خبرا الرديفَة، ونزلنا في أرض السِّيج. وفي ٢٧ رجب، ٣٠ يناير رحلنا في الصباح من السِّيج، ونزلنا بعد العصر أرض القطب. وفي ٣٠ رجب،٢ فبراير سنة ١٩٢٧، رحلنا من القُطْب إلى الرِّغْلِيَّة.

إلى الجوف

لما نزلنا الرِّغْلِيَّة سألت مثقال باشا بن فايز عن بعد الجوف عنا، فأجابني بأن الذي يغادرنا صباحًا يصلها ضُحًى، ولما كانت الجوف وِجْهَتي استأذنته في السَّفر، فأعلمني بأنه سيتوجه إليها بعد أيام للسلام على الأمير، وطلب إليّ التريُّثَ حتى نذهب سويَّةً فوق صهوات الجياد، قلت: لاتحتاج المسافة إلى ركوب.مادامت قريبةً هذا القرب، ورجوته أن يأذن لي، فأذِن. وبعد أن صلَّيت فجر يوم الجمعة الواقع في غُرَّة شهر شعبان سنة ١٣٤٥هـ ، ٣ فبراير سنة ١٩٢٧م غادرت الرِّغْلِيَّة بمفردي راجلاً دون أن أحمل زادًا أو ماءً، وسرت إلى الضُّحَى فلم أجد للجوف أيَّ أثَر، وسرت إلى الظهر فلم أقف لها على خبر وواصلت السَّير إلى العصر وقد ذَرَفَتْ من مُقْلَتَيَّ العبَر، فقد تحطَّمَتْ قواي، وتورَّمَتْ قدماي، وأخذ الجوع والظمأ مني كلَّ مأخذ، وليس لي من هذا المأزق أيُّ منفذ، وخشيت أن أكون قد ضللت الطريق، فإذا بي أرى قطيع غنم مقبلاً من وجْهَتي فهرولت إليه وسلمت على راعيه، وسألته: هل أنا ضال طريق الجوف؟، قال: لا بالله إنك ماسك الطريق.

قلت: وأين الجوف؟، قال: وراء ذلك الجبل فقدَّرتُ المسافة بأربع ساعات، وقلت: أمعك ماء تسقنيه؟.

قال: لا بالله، والغنم مابهن حليب، ولكن معي تمر من تمر الجوف، فإن شئت أعطيتك منه. قلت: هات. فأعطاني مقدارًا من التمر واستمر كل منا في سبيله، وأخذت ألْتَهِم التَّمر التهامًا من الجوع، لكن ظمأي ازداد، وماولَّى النهار حتى تدلّى لساني، ثم عجزت عن السَّير، ثم لم أعُد أُمَيِّز شيئًا مما

يحيط بي، فتنحَّيْتُ عن الطريق خطوات في الجبل، وألقيت بنفسي على الثّرى مستسلمًا للموت، فإذا بي أرى العجب، لقد عثرت على حفرة في صخرة مليئة بماء المطر، هداني الله إليها في هذه المفازة، وأنقذني بها من الهلاك المحقق، ومع أن ماءها كان منتنًا فإني هجمت عليه وغببتُه غبًّا، فردّ الله إليَّ روحي، وزالت الغشاوة عن بصري، واسترحت قليلاً، وأكلت من التّمر وشربت من الماء إلى قبيل العشاء.

واستأنفت سيري في ليلة حالكة الظلام، فأبصرت حوالي الساعة الرابعة العربية نورًا ولَّيْتُ وجهي شطره، فوصلت جدار بيت، فناديت: ياأهل البيت ياأهل البيت فردَّ علي صوت امرأة، 'مَنْ؟'، قلت:غريب قالت: 'قَبِّل تلاقي الباب فاتجهت إلى الناحية القبلية، فرأيت بابًا فتحه صبيّ قال: تفضل، وتقدمني إلى مقعد فيه موقد أحاط به ثلاث نسوة جَلَّلهن الوقار، قالت إحداهن: 'استرح حياك الله فجلست وقلت:أنا عطشان فقدَّمَتْ لي لبنًا مشيبًا وكنت كلّما طلبت الماء تقدّم لي اللبن، فَعَلَتْ ذلك ثلاث مرّات في الدقائق القليلة التي استرحتها في ذلك المقعد قبل دخول الصبي الذي فتح لي الباب مصطحبًا رجلاً طلب إليَّ النهوض معه إلى مضيفة الرجال، وهنالك قُدّم لي طعام من السمح المطبوخ[1]، لكن نفسي كانت توَّاقةً إلى النوم أكثر منها إلى الطعام، وبوضع رأسي على الوسادة انقضى ذلك اليوم بمتاعبه وآلامه.

وكانت هذه ثانيَ مرة ألدغ فيها من تقدير العرب للمسافات، أما المرة الأولى فكانت عند تقدير أحد أهاليالبصة للمسافة الواقعة بينها وبين

(١) نوع من الحبوب يصنعون منه الخبز ويطهونه طعاماً.

الحدود اللبنانية بشرب سيجارة مع أنها كانت ساعتين ونصف الساعة كما ذكرت ذلك في القسم الأول من هذا الكتاب.

وقد عاتبتُ مثقال باشا عندما زار أمير الجوف بعد أسبوعين من تاريخ هذا الحادث، كما ذكّرته به في سنة ١٩٣٠هـ لما زرت شرق الأردن في مؤتمر المنهوبات، وذكَّرتُه به لثالث مرة في حج سنة ١٣٦٢هـ / ١٩٤٣م، وسأظل أُذكره به كلما سنحت لى مقابلته إن شاء الله. ويظهر أن البدويَّ الذي وُلِدَ في الصحراء، ونشأ مع الغزاة، وتعوَّد الظَّعْنَ والإقامة فاستهتر بالمكاره واستهون الصعب، يعتقد أن الناس كلهم شخصُه فينظر إليهم نظرته إلى نفسه.

في ضيافة الأمير

علمت صباح اليوم التالي الواقع في ٢ شعبان سنة ١٣٤٥هـ ،٤ فبراير سنة ١٩٢٧م أني في قرية قارة إحدى قرى الجوف، فسألت صاحب البيت الذي قضيت ليلتي فيه عن قصر الأمير، فأرشدني إلى الطريق المؤدي إليه، فاتبعته ووصلت القصر، فعارضني راعي الباب[1] قائلاً: مين تِبي؟[2]. قلت: أبغي الأمير. قال: ماَهُو بفيه[3]. وبينما كنت في حواري معه وصل كاتب الأمير، وأخذني من يدي، ولما عرف اسمي قال: إنني أذكر هذا الاسم، وأظنك كنت ترسل سلامك للأمير في كتب مثقال بن فايز.

(١) حارس الباب.

(٢) من تبغي.

(٣) غير موجود.

قلت: نعم وهي مكتوبة بخطي.

وفي الساعة الثالثة العربية صباحًا وصل الأمير إلى القصر، وجلس في مجلس نوري الشَّعْلان زعيم قبيلة الرُّوَلَة أيام توليه على وادي السرحان، فدخلت، وسلّمت وكان كاتبه قد أخبره بقدومي فقال: حياك الله ياتميمي، وسألني عن قصدي، قلت: السفر إلى حائل. قال: إذن تبقى في ضيافتنا حتى تتوجه من طرفنا قافلة فنرسلك معها.

ومكثت في الجوف مقيمًا في قصر الإمارة الذي يرجع إلى عهد الفينيقيين في ضيافة الأمير طول شهر شعبان وأربعة عشر يومًا من شهر رمضان سنة ١٣٤٥هـ (من ٤ فبراير إلى ١٨ مارس سنة ١٩٢٧م) لاقيت في أثنائها كل عطف ورعاية وإكرام من أميرها عبدالله بن عقَيِّل أحد أعيان مدينة الرّس الشهيرة في تاريخ الحملة المصرية على الحجاز. كان هذا الأمير دمِثَ الأخلاق لطيفَ المعشر، باسِمَ المحيّا، مكرمًا للضيف، شديدًا في تنفيذ أحكام الشريعة الإسلامية السمحة، بطّاشًا فيمن يخرج عليها، وكنت أتناول وَجْبَتَيْن من الطعام يوميًا في قصر الإمارة، أولاهما وقت الضحى وهي عبارة عن قمح مجروش مطهي بالسمن، والأخرى قبيل المغرب وهي عبارة عن الرز ولحم الضأن، يرافق الوجبتين التمر واللبن المشيب. أما في الصباح فقد كان جند الأمير يهيئون القهوة بعد صلاة الفجر ويديرونها على الحاضرين مع حبّات من التمر، أما الخبز فكنت أشتهيه فلا أجده إلاّ في الولائم التي يدعى إليها الأمير ويصطحبني لها.

وكان الأمير يرأس المائدة في الوجبتين، وكان الضيوف والمقربون إليه يلتفون حولها على الأرض، وكانوا جميعًا يتناولون طعامهم بأيديهم اليمنى

فقط؛ ومع أنهم يضعون الكبش كاملاً غير مقطّع في وجبة العشاء؛ فإنه من العيب جدًّا عندهم أن يستعين الإنسان بيسراه في قطع اللحم أو الخبز إن وجد، فاليد اليمنى وحدها هي التي تُستخدم في الطعام، وهم متمرنون على استخدامها بحيث يستغنون عن الاستعانة باليسرى، والأمير نفسه يقطع اللحم ويقدّمه لضيوفه، ومن العيب عندهم أن يترك إنسان المائدة قبل الأمير حتى وإن شبع. وإذا نهض الأمير نهض الجميع، إلاّ أنّ الأمير لايترك المائدة أبدًا إلاّ بعد أن يجد الأيدي كلَّها قد كَفَّتْ عن الطعام.

وكان هذا الأمير يسامر ضيوفه ليلاً في مقعد بالدور الثاني من القصر، فاستنشدني ليلة نشيدًا وطنيًّا مما تعلمته في المدرسة، فأنشدته النشيد الآتي:

نحن جُند الله شبان البلاد	نكره الذل ونأبى الاضطهاد
فارفعوا الأعلام وامشوا للجهاد	حيث أعدانا تمادَوْا في الغرور
يابني عمّي ويا أُسْدَ الشَّرى	دار سوق الحرب في كلّ الوَرَى
فانتضوا السيف وهبوا كي نرى	سيفكم يلمع ما بين النحور
حسبنا الخسف مع الظلم كَفَى	خصمنا بالوعد يومًا ماوَفَى
ولكي نحيا بعز وصفا	قدّموا الأرواح للمجد مهور
إن موت الحرّ في ظل السيوف	يحصد الأبطال حصدًا والصفوف
لهو خير من حياةٍ في خسوف	فالثموا الشمس أواختاروا القبور

فطرب الأمير، وما إن سمع البيتين الأخيرين حتى استلّ سيفه من غمده وهزّه وقال: الله أكبر، واللهِ إنَّ الموت في ظله لخير من حياة الذل وأخذ يستنشدنيه كلَّ ليلة.

العقيدة الإسلاميّة الصحيحة تصادف قلبًا خاليًا فتتمكن منه

لم أكن أفقه شيئًا من ديني، وكنت أتهرب من الصلاة في المكتب السلطاني وعند خالي لما كنت آوي إليه، مع أن والدي لم يقطع لله فريضةً منذ كان عمره سبع سنين ولكنه لم يُنَشّئنا عليها طبقًا لتعاليم الإسلام القاضية بأمر الأولاد بالصلاة لسبع وبضربهم عليها لعشر، ولما بدأت أواظب على الصلاة أثناء رحلتي كانت صلاة آليّة دون تحقيق أو تدقيق أو معرفة بالأركان والواجبات والسنن والمبطلات.

أمّا أركان الإسلام فقد كنت أعلم أنها عبارة عن شهادة أن لاإله إلاّ الله وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً؛ ولكني ماكنت أعلم معنى لركن من هذه الأركان.

وأما جهلي بالعقائد، فيكفي أنني ضُلّلتُ بأن هدم القبور والقضاءَ على البدع والخرافات كفرٌ وضلال، يستحق فاعلوها المعاداة والقتال، إذ لم أكن أدري عن العقائد مثقال حبّة من معرفة، غير أنّ الله هيّأ لي مدّةَ إقامتي في الجوف فرصةً ثمينةً للوقوف على حقيقة الإسلام وعقيدة المسلمين، وعلى معنى الإيمان وطريقة الموحّدين، فقد أهداني الشيخ علي الأحمد قاضي الجوف على ماأظن كتاب الهَدِيَّة السُّنِّيَّة المشتمل على خمس رسائل في أصول الدين وعقيدة إخواننا النجديين الذين يسمونهم بالوهابيين:

الأولى: للإمام عبدالعزيز بن محمد بن سعود.

والثانية: للشيخ عبدالله بن الشيخ محمد بن عبدالوهاب.

والثالثة: للشيخ أحمد بن ناصر بن مُعَمَّر.

والرابعة: للشيخ عبداللطيف بن عبدالرحمن بن حسن بن محمد بن عبدالوهاب.

والخامسة: للشيخ محمد بن عبداللطيف بن عبدالرحمن بن حسن بن محمد بن عبدالوهاب.

كما كان في القصر تفسير القرآن الكريم للبغوي، فقرأت تلك الرسائل بإمعان وراجعت ذلك التفسير بإتقان، فصادفت العقيدة الإسلامية المؤَيدة بأقوى الأدلّة القرآنية وأوضح البراهين النَّبَوِيَّه قلبًا خاليًا فتمكَّنَتْ منه ورسخَت فيه واختلطَتْ بالدم واللحم والجِلْدِ والعَصَب والسَّمع والبَصَر، وأَصْبَحَتْ دينًا ألاقي الله تعالى عليه وأسأله تعالى ألايزيغ قلبي بعد أن هداني إليه، والحقيقة أني دهشت عند قراءتي لتلك الرسائل التي علمتُ منها أن القوم مسلمون حقًّا بل مؤمنون إيمانًا يوافق إيمان السابقين الأولين من السَّلف الصَّالح قبل تفشي مرض الضلال، وقبل انتشار وباء الانحلال؛ فإنهم يشهدون أن لاإله إلاَّ الله وأنّ محمدًا رَسُولُ الله بمعناها ومبناها لابلفظها فقط؛ بل هذه الشهادة هي شعارهم المكتوب في راياتهم وقد رسم تحتها السيف الذي هو أصدق إنباءً من الكُتُب.

(وهذا رسم رايتهم):



وهم يُصَلّون على النّبي صلّى الله عليه وسلّم، بل يعدّون الصلاة عليه من أفضل القربات إلى الله تعالى بل يجيزون التوسّلَ بالصلاة عليه لأنها عبادة وعمل صالح.

وهم يُثْبِتون الشفاعة للنّبي صلى الله عليه وسلّم ولسائر الأنبياء والملائكة والأولياء والأطفال أيضًا، ويعتقدون أنَّ رتبته عليه الصّلاة والسّلام أعلى مراتب المخلوقين على الإطلاق، وأنه حيٌّ في قبره حياةً برزخيةً أبلغ من حياة الشهداء، وأنه يسمع سلام المسلّم عليه، وأنّ زيارة قبره مسنونةٌ بلاشدّ رحلٍ إلى القبر بل إلى المسجد.

قطع الله ألسنة السّوء التي نَقلتْ عن هؤلاء القوم ماليس فيهم، ولعن الله الدّعاية التي صوّرتهم تصويرًا خاطئًا ونسبت إليهم الكفر والضلال وإنكار شفاعة محمد صلى الله عليه وسلم والصلاة عليه وزيارة قبره، وأنّهم يقولون أنّ عصا أحدهم أنفع له منه صلى الله عليه وسلم...

لقد علمت من هذه الرسائل التي حواها كتاب الهديّة السُّنِّيَّة والتُّحفة الوهابيّة النجديّة الذي طُبع مرتين بمطبعة المنار بمصر، أنَّهم لا يخالفون المسلمين في أصل من أصول الإسلام ولافي ركن من أركانه، بل ثبت لي أنَّ ماينسب إليهم بأنه سيئات، إنمّا هو حسنات يثابون عليها؛ فإنهم نظروا إلى جسم الإسلام بمجهر الإيمان وشاهدوا الجراثيم الفتّاكة التي أمرضَتْهُ وأنهكَتْهُ فلم يَعُدْ يقوى على الدفاع بَلْهَ الهجوم، ثم تغلَّبَتْ عليه فأقعَدَتْه فأصبح عاجزًا عن الوقوف بَلْهَ السّير، فأرادوا القضاء على هذه الجراثيم القاتلة حتى يتماثل هذا الجسم الضعيف المنهوك المهزول إلى الشفاء، ثم يقضي دور النَّقَه في استعادة البناء، كي يعود سليمًا كما كان، وكي يقوى على تلقى الصّدمات واللكمات من أعدائه المصارعين والملاكمين والمعتدين والمهاجمين، بل كي يقابل صراعًا بصراع وصدمةً بأخرى واعتداءً بمثله فيعود للإسلام سابق عهده، ويرجع إليه عزُّه ومجدُه... لقد شاهدوا تلك الجراثيم، وعرفوا موضع الداء، ووصفوا الدّواء الذي شُفِيَ به الجاهلون قبل الإسلام، لكن مرضى المسلمين لم يستسيغوا الدواء، ولابحثوا عن وسائل الشفاء، وفضَّلوا السقم على الصّحة، والفقرَ على الغِنَى، والذُّلَّ على العِزَّة، والضَّعفَ على القوة، والهرم على الشباب، فذهبوا واضمحلوا، وتفرقوا وانحلوا؛ ولن تقوم لهم قائمة إلاّ إذا صحوا من غفوتهم، ونهضوا من كبوتهم، فاللهم أيقظهم واهدهم سبيلك القويم وصراطك المستقيم.

وطالما ذرفتُ الدَّمعَ سخينًا كلّما وقفتُ على مسألة دينيَّة أو اطّلعتُ على معنى آية قرآنيَّة، إذ كنت أقارن بين هذة الحالة التي هداني الله إليها، وبين تلك التي أنقذني الله منها، فأجد الفرقَ شاسعًا والنسبةَ منعدمة، ولستُ أدرى أهُوَ دمعُ النَّدم على حالتي الماضية أم هُوَ دمعُ الفرح لحالتي

الحاضرة؟.وكنت إذا أمعنتُ النظر ودقَّقت التفكير أشكر الله تعالى على جهلي الماضي في المسائل الدينية، وأعُدُّ ذلك الجهلَ نعمةً عُظمَى أنعمها الله علي؛ لأن العقل لم يتسمَّم بما تسمَّمَتْ به عقول أكثر المسلمين؛ بل كنت إذا أنعمت النظر ودقققت التفكير، أعدّ موتَ والدتي وزواجَ أبي وماأعقب ذلك من متاعب وآلام منناً كُبْرَى مَنَّ الله علي بها لإخراجي من الظلمات إلى النّور؛ بل كنت إذا أنعمت النظر ودققت التفكير أعُدُّ عدمَ ثباتي في إحدَى الوظائف التي تقلّبتُ فيها، وطيشيَ الذي كنت مصابًا به أسبابًا قدّرها الله لنجاتي من بحر الجهل والضلال إلى شاطئ العلم والإيمان، وتبعًا لذلك عددتُ والدي أكبر محسن وزوجَه أعظمَ مُنصِفة، وأعمامي وأخوالي وأقاربي أشدَّ الناس إخلاصًا لي، فكنت أرفع يديَّ إلى السماء سائلاً من كان عرشه على الماء، أن يجزيهم عنّي جميعًا خير الجزاء.

وأخَذَت الحال تتبدّل، وأصبحت الصلاة ذاتَ مغزًى ومعنًى، وكنت أستعذبُ النهوضَ قُبَيْلَ الفجر للوضوء من قَليبٍ واقعٍ في ناحيةٍ من ساحة القصر الداخلية في البرد القارص غير ملتفت إلى الجروح الناشئة عن التشقق في يَدَيَّ وقدَمَيَّ من شدّة البَرْد، ولاعابئً بالنعامتين اللتين كانتا تمرحان في تلك الساحة وتغافلان كلَّ إنسان فترفصه إحداهما من الخلف رفصَةً تقطع بها ملابسه وجلدَ ظهره، ثم علَّمني أحدُ رجالِ الأمير أن ألتفت إليهما بوجهي إذا رأيتهما يتبعاني، لأن النّعامة لاتجرؤ على مهاجمة الإنسان وجهًا لوجه. لقد اصطاد رجل هاتين النّعامَتَيْن وأهداهما لعبدالله ابن عقَيّل الذي كان ينوي إهداءَهما لعبدالعزيز بن مساعد أمير حائل.

ثم كنت إذا وقفتُ للصّلاة، ودخلت فيها بتكبيرة الإحرام، واستفتحتها بقولي:«اللَّهُمَّ بَاعِدْ بيني وبين خطايَايَ كما باعَدْتَ بين المشرِق والمغرِب،

اللّهُمَّ نَقنِّي من خطايَايَ كما يُنَقَّى الثوبُ الأبيضُ من الدَّنَس، اللّهُمَّ اغْسِلْنِي من خطايَايَ بالماء والثلج والبَرَد»؛ وقرأت بعد ذلك فاتحة الكتاب التي درستُ معانيها في تفسير البغوي، كنت أشعر بلذة مابعدها لذة؛ وكنت أعتقد أنَّ دعاءَي الاستفتاح والفاتحة قد صادفا القبول وكنت أشعر أنّي مولودٌ جديدٌ يُؤَرْجَحُ في مَهْد الهِدَاية، وأنّي إنسانٌ سعيدٌ شملتْهُ ألحاظُ العِنَايَة.

ومنذ ذلك التّاريخ، أخذتُ أنظرُ إلى الدين نظرة جدِّية وأبحثُ فيه بحثًا عميقًا، وأُحاربُ كُلَّ مُعارضٍ لتعاليمه، وأُجاهدُ كُلَّ مُعاند لأحكامه، وأصبح الدّينُ ميزان الحبّ والبغضاء، أحِبّ المرءَ بقدر تمسُّكه به ولَوْلَمْ تربطني به صلة الرّحم، وأبغضُه بقدر ابتعاده عنه ولو كانت بيني وبينه قرابة الدّم.

نشأة حبي لعبدالعزيز بن سعود

من هذه العقيدة نشأ حبي لعبدالعزيز بن سعود، وتوثقت عرى إخلاصي له بوصفه حاكم هذه البلاد الآمنة المطمئنة المستظل أهلها بظلّ سيفه الحامي لحِمَى الشريعة الإسلامية والذابّ عن ذمَارِها، وأخذ لساني يلهج بالدعاء له مع الداعين كُلَّما أُنصِف مظلوم، أو أُعيد حقٌّ مهضوم أو نُفّذَ حكمٌ من الأحكام، أو نُهض عن مائدة الطعام: طَوَّلَ الله عُمُرَ عبدالعزيز و متَّعنا الله بحياة أبي تُرْكِي والله لايخلينا من طويل العمر؛ كما أخذ يدبّ في نفسي شعورٌ بأني أصبحتُ عضوًا في جسم الدولة التي يرأسها هذا الرجل العظيم، وفردًا من أفراد أمّته، والحبّ الذي يكون أساسه المبدأ وقُوَامُه العقيدة وأركانُه الائتلاف أدْوَمُ وأبْقَى من الحبّ العارض الذي يكون أساسُه المنفعة الذاتية وقُوامُهُ النّفاق وأركانُه الاختلاف.

معلومات عامة عن الجوف

١- نبذة تاريخية

الذي يرجع إلى تاريخ الفتح الإسلامي، يجد في حوادث السنة الثانية عشرة الهجرية (٦٣٣م) أن خالد بن الوليد القائدَ الإسلاميَّ المظفَّرَ قد فتح في تلك السنة واحة تسمى دَومَة الجَنْدَل، كان يسكنها نصارى العرب يتزعمهم أكَيْدر بن عبدالملك والجوديّ بن ربيعة؛ وأنّ أهلها استفزعوا أحزابهم منْ بَهْرَاء وتَنُوخ وكَلب وغَسَّان والضّجاعم، عندما علموا أنّ خالدًا قد ولّى وَجْهَه شطرَهُم بعد فراغه من وقعة عَيْن التَّمْر، وأنّ هؤلاء الأعراب بادروا إليهم بقيادة ابن الأَيهَم علىغسّان وتَنُوخ، وابْن الحِدْرِجَان على الضّجاعم، وأنّ أُكَيْدر بنَ عبدِالملكِ نصح قومه بمصالحة خالد ليُمْن طالعه في الحروب، فخالفوه، فلم يمالئهم على حربه وفارقهم غير أنّه لم ينج من سيف خالد: وأنّ أهل دَوْمَةِ الجَنْدَلِ وأحزابَهم قد هُزِمُوا في المعركة التي دارت رحاها بينهم وبين جيش خالد من جهة، وبينهم وبين جيش عِيَاض بن غُنْم من جهة أخرى، فتحصَّنوا بحِصْنِ المدينة، فاقتحمه خالدٌ عليهم، فدَوْمَةُ الجَنْدَل هذه هيالجوف بعينها، وهذا الحِصْنُ الذي اقتحمه خالد عامئذٍ على أهلها هو قصر الإمارة الذي نَزَلْتُ فيه طول مُدَّة إقامتي فيها.

٢- موقعها

هي عبارة عن واحة واقعة شمال النّفود على رأس وادي السَّرْحَان، وممتدّة من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي، يبلغ طولها حوالي أربعة كيلومترات وعرضها حوالي كيلو متر واحد، وكلها حدائق وبساتين، وهي منخفضة عن سطح الصحراء المحيطة بها بنحو ٥٠٠ قدم وفي الشمال الشرقي من واحة الجوف، توجد واحات صغيرة أخرى هي:سكاكة وقارة والطوير و جاوة كلها مزارع نخيل، والجوف هي الواحة الوحيدة الواقعة بين العَقَبة وبَغْدَاد، على الطرِيق الرئيس الذي يصل سوريا بوسط بلاد العرب، وفي موقع متوسط بين نهر الفرات وسكة الحديد الحجازية وبين جبل الدّروز وجبل شمّر.

٣- آثارها

من آثارها التاريخية: حصنها قديمًا وقصر الإمارة اليوم، ويرجع عهده إلى الفينيقيين على ماقيل، ومسجدها وتلك الأبراج ذات المداخل الصغيرة والمنافذ الدقيقة التي يتراوح ارتفاعها بين ٤٠ إلى٥٠ قدمًا وعرض جدرها ١٢قدمًا، والتي كان يبنيها الموسرون من أهلها بجانب بيوتهم، متصلة بها أو منفصلة عنها. وأغلب الظن أنهم كانوا يتّخذونها حصونًا للدّفاع عن أنفسهم ولردّ عادية المعتدين قبل انضمام هذه الواحة إلى بلاد ابن سعود.

٤- جوها وزراعتها وصناعتها

جوّ الجوف معتدلٌ في الشتاء إلا أنّه قرّ في لياليه، وقيظٌ في الصيف، والنخيل وهي الزراعة الرئيسة، ويزرع حولها السَّمْحُ، والدُّخْنُ، وقليل من

القمح والشعير. وتمر الجوف مشهور بين البدو؛ فإن قبائل بني صَخْر والحُويطات والرُّوَلَة والشَّرارات تتموّن منه كلّ عام، ولأهل الجوف طرق خاصة لاختزان التمر إلى وقت قدوم القبائل المذكورة أيام الشتاء ... والتَّمْرُ واللبَنُ والسَّمْحُ والدُّخْنُ هي الطّعام الرئيس لأهل الجوف، أمّا خبز القمح فلا يتذوّقونه إلاّ في الولائم الكبيرة، وهي مشهورةٌ بصناعة العباءات المعروفة بالشّمال.

٥- صادراتها ووارداتها

تصدر الجوف العباءات والتمر والغَنَم إلى سوريا وشرق الأردن، وترد إليها الأقمشة من سوريا بواسطة قوافل الإبل، كما يرد إليها السّكر والشاي والبن والأرز من الهند عن طريق يَنْبُع – المدينة المنورة – حائل، أو عن طريق الوَجْه – العلا– حائل، وفي الجوف بضعة محال لبيع هذه البضائع.

ولم يكن فيها إدارة للجمارك لاستيفاء الرسوم على البضائع الواردة، بل كان الأمير يُحصل رسمًا معلومًا عن كل حمل بعير، ولكن الحكومة ربطت الجوف وقريّات المِلْح بالحجاز ماليًّا في سنة ١٣٤٨هـ /١٩٢٩م وأرسلت إليهما موظفين للمالية والجمارك، وبدئ منذ ذلك التاريخ بتحصيل الرسوم الجمركية حسب التعريفة المقررة في جمارك الحجاز.

٦- الحكم والإدارة

يحكم الجوفَ عاملٌ من قبل عبدالعزيز بن مساعد أمير حائل، حاكم الشمال الذي تدخل الجوف وتيماء وقريّات المِلْح في دائرة نفوذه، وينصب

عُمَّالها الذين يسمونهم أمراء، وهم لايتقاضون مرتبات معينةً بل تُعطى لهم هبةٌ معلومةٌ من أموال الزكاة كُلّ عام، أمّا طعامهمً فإن أمير حائل يبعث إليهم قوافلُ الرز والسّكر والشاي والبن ومنها يأكلون ويطعمون ضيوفهم.

والأمير خاضع لسلطة القاضي في المسائل الشرعية وليس عليه إلاّ تنفيذ مايُصدِرُه من الأحكام طبقًا للشريعة، وإشارةٌ صغيرةٌ من القاضي ينسب فيها إلى الأمير إهمالاً أو ترددًا في تنفيذ الأحكام الشرعية تكفي لعزله.

٧- المواصلات

كانت سفن الصحراء الجمال هي وسائل النقل الوحيدة بين الجوف وحائل وقريّات المِلْح، وكانت الذُّلُلُ أسرع وسائل نقل البريد في البلاد العربية، وفي سنة ١٣٤٨هـ /١٩٢٩م أُسِّسَتْ في الجوف إحدى المحطات اللاّسلكية التي أُنشئَتْ بها شبكة لاسلكيةٌ في مختلف أنحاء المملكة العربية السعودية. فأكثر المخابرات ترسل الآن إلى أمير الجوف برقيًّا. كما أصبحت السيارات وسائل النقل السريعة.

اجتياز النفود إلى حائل

كنتُ مدّة الثلاثة والأربعين يومًا التي قضيتها في الجوف في دراسة دينية توّاقًا للسفر إلى حائل، ومنها إلى الحجاز لعلّي أتمكن من أداء فريضة الحجّ ذلك العام.

وبعد شهر كامل من إقامتي في الجوف وصل إليها عبدالرحمن البواردي أمير شَقْرَاء، عائدًا من مهمة جمع الزكاة من القبائل الضاربة في وادي السَّرْحان، وسلَّم قوائمَ حساب الزكاة للشيخ علي الأحمد قاضي الجوف لمراجعتها، فاستعان بي لضعفه في الحساب، فراجعتها وشكرني الأمير عبدالرحمن البواردي، ووعد باصطحابي إلى حائل، وحدّد يوم ١٥ رمضان سنة ١٣٤٥هـ، ١٨ مارس سنة ١٩٢٧م لمغادرتنا الجوف.

وماكاد يطلع فجر ذلك اليوم حتى بادرتُ - بعد الصلاة - إلى الساحة التي كانت القافلة نائخةً فيها خارج القصر، فأرشدني الأمير إلى ذَلُولٍ خصَّصها لركوبي. وتحرَّكَت القافلة عند بزوغ الشمس، وماقطعَتْ حواليَ عشرة كيلومترات حتى كانت تسير في بطون وديان وسفوح جبال، كلها رمال في رمال، توحي للشاعر عبقريتَه وخيالَه، وللكاتب سحَرهُ وبيانَه وللمرجي أمانيه وآمالَه.

أمّا أنا فلم أك شاعرًا حتى أستوحي من هذه المناظر الخلاَّبة عبقريةً أو خيالاً، ولم أك كاتبًا أستوحيها سحرًا وبيانًا، ولم تكن لي أمانٍ محددة أرجوها، ولا آمال معينة أبتغيها، ولم يرسلني أحد بتوصية لتقلد عملٍ مهم

أو وظيفة رئيسة، ولكني كنت أشعر من أعماق قلبي بسرورٍ لايُعادله سرور وفرح لايُجاريه فرح، وكانت تخطر لي خطرات لذيذةٌ، وتطوف بنفسي معانٍ ساميةٌ لا أستطيع التعبيرَ عنها... كنت أعُدُّ نفسي مهاجرًا إلى الله تعالى وفارًّا إليه، وكنت أعتقد أنه لابّد لهذا الإله الكريم الذي يَفْرَحُ للمقبلين عليه أن يُهيّئ لي أسباب الرزق كما هيَّأ لي أسباب الهِداية... وبهذه العقيدة كنت أسير في تلك الرّمال، وبذلك الإيمان كنت أسبح في بحار الخيال.

وفي صباح ١٦ رمضان، ١٩ مارس وصلت القافلة ماء الشقيق فمُلِئَتْ منه القرب، واستأنَفَتْ سيْرَها إلى قرية الجُبَّة التي وصلناها مساء ١٨ رمضان،٢١ مارس وهي قرية كثيرة المياه والنخيل تقع في منتصف الطريق بين الجوف وحائل، فأكرم أميرها وفادةَ الأمير عبدالرحمن البواردي ونحر فصيلاً وكبشَيْن، وقضينا ليلتنا فيها.

وفي صباح يوم ١٩ رمضان،٢٢ مارس غادرنا الجُبَّة ووصلنا مدينة حائل صباح يوم ٢١ رمضان، ٢٤ مارس.وكانت خطّةُ سيْرِنا في سفرنا هذا الذي صادف شهرَ رمضان، والذي اجتَزْنا فيه النُّفُودَ من الشمال إلى الجنوب، أنّا كنا نسير من بعد صلاة الفجر إلى مابعد العَصْر، فنُمَرِح(١) ونُصلّي الظهر مع العصر قصرًا وجمعًا، ثم يبدأ كلٌّ من رجال الأمير بالقيام بمهمته، فواحد يحتطب والحطبُ كثيرٌ في النُّفود، وثانٍ يوقِدُ النّار، ويطبخ القهوة، وثالثٌ يذبح الكبشَ ويسلَخُه، ورابعٌ يُنَقّي الرّزّ، وخامس يطهو الطّعام؛ فإذا غربَتْ الشّمس أذَّن المؤذّن وتناول كل منا حبّات من التمر وأُديرت علينا القهوةُ؛ ثم نصلّي المغرب ونجمع معه العشاء قصرًا، ونتناول

(١) نستريح.

بعد ذلك طعام الإفطار، ثم نشدّ الرّحال ونمسي في المكان الذي نصل إليه قبيل منتصف الليل، ونَنَامُ إلى قُبَيْل الفجر، فنستيقظُ، وماإن ننتهي من طعام السّحور وشرب القهوة إلاّ وقد طلع الفجرُ فنُصلّيه، ونستأنفُ السَّيْر إلى مابعد العصر، وهكذا حتى وصلنا إلى مدينة حائل.

كانت هذه خطَّةُ سير القافلة أيّام الصّوم التي كان بعض المسافرين يَصُومُهَا والبعضُ يُفْطِرُهَا مُسْتَرخِصًا بقول الله تعالى ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَرِيضًا أو عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَر ...﴾ (سورة البقرة، آية: ١٨٤).

أمّا في غير شهر رمضان فإن من عادة النجديين في أسفارهم أن يبدأوا السَّيْر من بعد صلاة الفجر إلى الضُّحَى فيُقيلون إلى قُبَيْل المغرب، ويتناولون في فترة القَيْلولة هذه وَجْبَتَي الفطور والعشاء، ثم يشدّون الرّحل إلى منتصف الليل، فيبيتون إلى الفجر. فيُصَلُّونه ويستأنفون السير إلى الضحَى وهلم.

في مدينة حائل

وبمجرد وصول القافلة إلى مدينة حائل صباح يوم الجمعة ٢١ رمضان سنة١٣٤٥هـ، ٢٤ مارس سنة ١٩٢٧م، توجهتُ صحبة الأمير عبدالرحمن البواردي إلى قصر الإمارة للسّلام على أميرها عبدالعزيز بن مُسَاعِد، فقدَّمني إليه، فسلمت عليه، وسألني عن قصدي قلت السفر إلى المدينة المنّورة فمكة المكّرمة، فخيّرني بين الإقامة في ضيافته وضيافة القاضي الذي كان حاضرًا بمجلسه، فاخترت ضيافة القاضي للاستفادة من علمه.

وأقمتُ خمسة عشر يومًا في مدينة حائل في ضيافة قاضيها المرحوم الشيخ عبدالله بن بليهد الذي كان في الوقت نفسه رئيس قضاة الحجاز، ولاقيت منه كل إعزاز وإكرام، واستفدمت كثيرًا من غزير علمه وواسِع اطّلاعِه.

حقائق ومشاهدات

١-قيام الليل

نظرًا لوصولي إلى حائل في أوّل يومٍ من الأيّام العشرة الأخيرة من شهر رمضان، سنحت لي فرصة مشاهدة طُرُقٍ صيامهم وعبادتهم في هذه الأيام.

كانوا عندما يُؤَذن المغرب يتناولون تمرات ويُصلّون المغرب في المساجد، ثم يتوجّهون إلى منازلهم، فيُفْطِرون ويشربون القهوة، ثم يعودون إلى المساجد، فيُصَلّون العشاءَ والتراويحَ، ويستمُّرون جلوسًا في المساجد يقرأون القرآن إلى الساعة الرابعة العربيّة؛ ثم يَقِفون بعد ذلك لصلاة القيام، فيُصَلُّون ثماني ركعاتٍ في خشوع واطمئنان يقرأ الإمام فيها ثلاثة أجزاء من القرآن، بحيث يختم القرآن كلّه في هذه الأيّام العشرة؛ وينتهون من صلاة القيام وقت السَّحَر، فينصرفون إلى منازلهم فيتسَّحرون ويشربون القهوة؛ ثم يرجعون إلى المساجد، فيُصَلُّون الفجر، ويقرأون القرآن إلى شروق الشمس، ثم يغادرون المساجد إلى منازلهم فينامون إلى قُبَيْل الظهر، فيستيقظون ويُصلّون الظهر في المساجد مع الجماعة، وينصرفون بعد ذلك إلى أعمالهم، وما إن يُؤَذّن العصر حتى يهرعوا إلى المساجد فيُصلّونه، ويقرأون القرآن إلى المغرب وهكذا.

ولايقتصر قيام الليل عندهم على الشيوخ والعلماء والزاهدين، ولكنه يعمُّهُم جميعًا شيبَهم وشبَّانَهم، ونساءَهم وولدانهَم، ويخشعون في صلاتهم ويُخلِصون في دعائهم، وإذا قرأ الإمام آيةً فيها تهديدٌ ووعيدٌ وذكرٌ للعذاب الشديد، يُعولون ويبكون ويشاركهم إمامهم في العَويل والبكاء.

وحدَّثتني نفسي ذات ليلة: هل هذه السُّنَّةُ قاصرةٌ على المسجد الكبير الذي كنت أُصلِّي فيه أم أنها تشمل جميع مساجد المدينة؟ فساقني حُبُّ الاستطلاع إلى الانسحاب من المسجد الكبير بعد صلاة الركعتين الأوليَيْن من صلاة القيام، وتجوَّلت على جميع المساجد فرأيت صورة طبقَ الأصل من المسجد الكبير.

٢- الصلاة

أما الصلاة فهي إجبارية على كل من بلغ الحلم، والأولاد يُدَرَّبون عليها منذ الصغر، حتى أنك لا تجد طفلاً بلغ السابعة تاركًا للصلاة، ويجب على كلِّ فرد يُؤَدِّي الفرائض الخمس في أوقاتها بالمسجد مع الجماعة اتباعًا لمذهب الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه، والويل لمن يتخلف عن صلاة الفجر مع الجماعة لغير عذر شرعي، ففي كل حيٍّ من أحياء المدينة مسجد، ولكل مسجد إمام يحمل كشفًا بأسماء من تجب عليهم الصلاة في حيِّه، وعندما يختم صلاة الفجر بالتسليم يلتفت إلى المصلين، ويخرج ذلك الكشف من جيبه ويُتمم عليهم كما يُتَمم المعلم على تلاميذه والضابط على جنوده، ويُسجّل أسماء المتخلفين في وريقةٍ يقدمها للأمير، فيستدعي الأمير المتخلفين ويسألهم عن سبب تخلفهم عن صلاة الجماعة في المسجد، فالذي يثبت مرضه يُعذَر، والذي يثبت أنه صلّى في مسجدٍ آخر يُعذر كذلك، أما

المتهاون فيُنَبَّه لأول مرة، ويُغَرَّم في الثانية، ويُجلَد في الثالثة، مع العلم بأن هذا المتهاون غير تارك للصلاة وإنما تأخَّر عن صلاة الجماعة في المسجد لعذر غير مقبول.

رأيتُ ذلك بعَيْنَي رأسي في مساجد مدينة حائل وعلمت أن هذا النظام متبع في جميع البلاد النجدية.

٣- الزكاة

بينما كنتُ سائرًا في سوق مدينة حائل بين الظهر والعصر من يوم ٢٦ رمضان، ٢٩ مارس شعرتُ بيدٍ تمسك كَتِفي، فالتفتُّ فرأيتُ أحَدَ رجال الأمير فقال: أنت التميمي؟ قلتُ: نعم، فأخذ بيدي وسار بي في زقاق ضيق من أزقة المدينة ولستُ أدري ما يُراد بي ومرَّت على مخيلتي في هذه اللحظة سحابةُ تفكير عميق جعلتني أتخيَّل أني مسوق إلى السجن لأني دخلتُ الأراضي النجدية المحرّمة على الأجانب من طريق لم يسبق لأحدهم اجتيازه قبلي، ولكن صاحبي قطع عليّ تفكيري الرّهيب وخيالي المخيف بإعطائي صرة تحتوي نقودًا فضِّيَّةً قال: إن الأمير أرسلها إليَّ لأكتسي بها على العيد وطلب مني عَدَّها، فعددتها فإذا هي مئة ريال من الرّيالات المسمَّاة أبو شوشة، وكانت تسعة الريالات منها تعادل جنيهًا إنجليزيًّا ذهبًا فتقبلتها شاكرًا، وجُدتُ عليه بريالين مما جاد علي به الأمير متمثلاً بقول الشاعر:

يجود علينا الخَيِّرون بمالهم ... ونحن بمال الخَيِّرين نجود

وبقدر سروري لهذه الهبة كان استغرابي وتساؤلي عن سببها، ولم يكشف لي سرَّها إلا المرحوم الشيخ عبدالله بن بُليهد الذي أخبرني أن الأمير لم يُعطنيها من جيبه، وإنما أعطانيها من بيت مال المسلمين بوصفي ابن سبيل، ولابن السبيل حق في بيت المال عملاً بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللهِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ (سورة التوبة، آية: ٦٠).

ولما أراد الأمير تنفيذ رغبتي التي أبديتها له يوم سلَّمت عليه، اكترَى لي ذَلُولاً إلى المدينة المنوَّرة وحمَّلني مئونة من الدقيق والسّمن والتّمر والرّز والبن والشاي والسّكر والهيل (حبّ الهان) وكلّ ذلك من بيت مال المسلمين.

فهنيئًا للمسلمين الذين يُعمِّرون بيت مالهم بما يدفعونه من زكاة أموالهم ومِنْ خَفيِّ صدقاتهم ومُعْلَنِها، وبُشرى للفقراء والمساكين وأبناء السبيل ببلدٍ فيه بيتُ مالٍ للمسلمين فلا يتضوَّرون ولا يتسوَّلون ولا ينقطعون.

٤- القضاء

بينما كنت أتمشى ذات يوم في شوارع المدينة بعد عيد الفطر، سمعت ضوضاء ساقتني قدماي إلى مصدرها مستطلعًا، فإذا بي أقف مشدوهًا لما رأيت وما سمعت؛ رأيتُ رَجُلَيْن قد اشتدّ بينهما الخصام حتى ظننتُ أن أحدَهما سيفتك بالآخر، ورأيت جماعة يحيطون بهما إحاطة السِّوار بالمِعصَم وكلّهم جلوس على الأرض، وسمعتهما يتسابّان ويتشاتمان بكلام ليس مما عهدته من ألفاظ السبّ والشتائم، سمعت أحدَهما يقول للآخر: «يا شيخ اسكت بارك الله فيك»، فيقول الآخر: «اسكت انت هداك الله»، فيرد الأول: «اسكت جزاك الله خيرًا» فيقول الحاضرون لكلٍ منهما: «اذكر

الله»، فيرد الاثنان: «لا إله إلا الله محمد رسول الله»، ثم يقول أحدهما للآخر: «أنا طالبك للشّرع» فيرد: «سمعًا وطاعةً». وانصرف الجمع على أن يحتكم الخصمان للشريعة الغرَّاء في اليوم التالي. وجملة «أنا طالبك للشرع» هي عريضة الدّعوى، وهي المُحْضر، وهي إعلان الحضور عندهم. وكل من وُجِّهت إليه وجب عليه الانقياد للمُثول أمام القاضي. ومن لا ينقاد سامعًا طائعًا يُعدُّ خارجًا على الشريعة وله من الأمير الحساب العسير.

والمحكمة الشرعية عندهم ليست دارًا ذات حُجَر وقاعات جُدُرُها مُزَخْرَفة وأرضُها مُرَيَّشة تضمّ العدد الكبير من النوافذ والأبواب، والجمَّ الغفيرَ من الكُتَّاب والحُجَّاب، إنّما هي محكمة متواضعة مركزها أحد شوارع البلدة أو المدينة، يجلس فيه القاضي بعد صلاة العصر على التراب إن كان متخشّنًا أو على فروة شاة إن كان متنعِّمًا، ويجلس بجانبه كاتبٌ يحملُ دَوَاتَه النّحاسَ المعروفةَ لمشايخ الكتاتيب.

ويحضر الخصمان إلى مجلس الشرع في هذه المحكمة بموجب إعلان «أنا طالبك للشرع» ويُدْلي كُلٌّ منهما بحجته فيفصل القاضي بينهما بما تقضي به الشريعة، ولا مَحَاضر جلسات ولا حيثيات حكم، ولا إعلان أحكام، بل الخصمان نفساهما يُنَفِّذان حكم الشريعة بمجرّد تذكيرهما به عملا بقوله تعالى:

﴿فَإِنْ تَنَازَعتُمْ في شَيء فَرُدُّوه إلى اللهِ والرَّسُول إنْ كُنْتُمْ تُؤمِنُونَ بِاللهِ والْيَومِ الآخِرِ، ذَلِكَ خَيْرٌ وأَحْسَنُ تَأوِيلاً﴾ (سورة النساء، آية: ٥٩).

ولا يستخدم القاضي الكاتب إلا حين يُصْدِر حكمًا بالقصاص، فيكتب في قصاصة صغيرة جملة واحدة هي: «جزاء هذا القتل» إن كان الجاني قاتلاً، أو الرجم إن كان زانيًا محصنًا، والجلد إن كان زانيًا غير محصن، أو قطع اليد إن كان سارقًا، وربما جلس القاضي في محكمته هذه أيّامًا وأسابيع دون أن يفصل بين الأنام، أو يُصدِر مثل هذه الأحكام؛لأن الناس أُنصفوا فاستراح القاضي.

تطور حبي لعبدالعزيز بن سعود

كان لهذه الحقائق والمشاهدات التي رأيتها في حائل أثر فعَّال في نموّ حبّي لعبدالعزيز بن سعود، ذلك الحب الذي بُذِرَت بذوره في قلبي لما سمعت أوّل شدوٍ شداهُ الشادي عندما خطوت أول خطوة في بلاده، واخضَّرَ نباته في الجوف، وها هو ينمو في حائل.

كيف لا، وقد كنت غريبًا في بلادي محرومًا من عطف الناس جميعًا حتى من عطف أقرب الأقربين، وهأنذا في بلاد ابن سعود وعلى بعد مئات الأميال مما يسمونه وطنًا، ألاقي من أهلها كلَّ إعزاز وإكرام، لأني أخوهم في الإسلام، معتقدين أنَّ ما يُظهرونه نحوي إنما هو واجب يفرضه عليهم دينهم، ولا يحق لهم أن يَمُنُّوا علي به.

ألا يعذرني القارئ الكريم بعد ذلك، إن أنا أحبَبْتُ عبدالعزيز بن سعود، وإن أنا هتفتُ من صميم فؤادي:

طوّل الله عُمُرَك يا عبدالعزيز، وأبْقَاكَ مُجَدِدًا لما اندرس من معالم الدّين، ومُحَيِيًا لما انترك من هدّي سيد المُرْسَلين.

لمحة تاريخية عن مدينة حائل

يمتدّ بين جبلي أجا وسلمى المشهورين منذ التاريخ الجاهليّ لأن منطقتهما كانت تضم صنمًا من أصنام العرب يُسمَّى «فَلْسًا»، .. يمتد بين ذينك الجبلين سهلٌ واسع تنمو فيه أشجار النخيل بكثرة، وتوجد فيه ينابيع ماء وفيرة تجعل الأرض صالحة لأنواع شتى من المزروعات.

وتسكن هذا السهل قبائل شمَّر المشتغلة بالزّراعة وتربية الماشية، ولذلك سُمِّي «جبل شَمَّر». وهو مقاطعة تعلو عن سطح البحر ٢٢٠٠ قدم. وتنحدر من الجنوب الغربيّ إلى الشمال الشرقي، وتتجه مياهُها إلى وادي الرّمة.

وسلسلتا جَبَلي أجَا وسَلمَى واقعتان شمال المقاطعة وممتدتان حتى طرفها، ويبلغ ارتفاع أعلى قِمَّةٍ في جبل أجا حوالي ٨٠٠٠ قدم عن سطح البحر، وتبلغ مساحة سلسلته ١٠٠ ميل طولاً و ٢٠ ميلاً عرضًا، وتوجد في الجبال مراعٍ خصبة نظرًا لكثرة هطول الأمطار.وسكان جبل شمّر خليط من البدو والحضر يبلغون نحو ٥٠ ألفًا.وتستورد هذه المقاطعة الرّزَ والبنَّ والشّايَ والسُّكرَ والأقمشة، وتصدِّرُ الجيادَ والجمالَ والغنمَ.

فمدينة حائل هي عاصمة هذه المقاطعة، وكانت فيما مضى مركز إمارة «آل رشيد» الذين كان لهم شأن في تاريخ الجزيرة الحديث، وهي محاطةٌ بسورٍ مبني باللبن يبلغ ارتفاعه حوالي عشرين قدمًا، وله أبراجٌ مستديرةٌ بناه الأمير عبدالعزيز الرَّشيد، وتوجد داخل هذا السور مزارع القمح وبساتين التين، كما يُزْرَعُ في بساتينها الخارجية الرُّمان والليَّمون الحُلو

والنّارنج والبرتقال والبرّقوق والتّفاح. ويشتمل جبل شمرّ على عدة بلاد أخرى: مثل فِيد، قِفار، عُقْدَة، مُوقَق، سَيْفَان، الجُفْنَة، مُسْتَجَدّة، الغزالة، الرّوضة، تيماء.

وأمير جبل شمّر الحالي وحاكمُ الشّمال هو:

الأمير عبدالعزيز بن مساعد بن جلَوي بن تُرْكي بن عبدالله بن محمد بن سعود، وهو أحد الأربعين الذين كان يقودهم جلالة الملك عبدالعزيز أول ما استعاد ملك آبائه وأجداده، ثم قامت على أكتافهم هذه المملكة الفتيّة، وصهرُ جلالة الملك، وحفيدُ أخي جدّ جلالته، وهو رجل ذو هيبةٍ ووقار وسطوة ترتعد لها فرائص مرضى القلوب، وآل جلَوي مشهورون كُلُّهم بالهيبة والسّطوة، وحائزون على ثقة المليك الغالية، ومعدودون من ليوث البلاد العربية السعودية وحماة أطرافها.

إلى المدينة المنورة

في صباح عيد الفطر خرج أهالي حائل كلهم أميرهم وحقيرهم كبيرهم وصغيرهم، شيبهم وشبانهم وولدانهم ما عدا الحريم إلى سهل فسيح منبسط خارج المدينة لصلاة العيد، وأخذوا يمرّون بعد الصلاة على الأمير الذي وقف في موضع من ذلك السهل، مسلمين مهنّئين، وكنت أحدهم.

وفي اليوم الخامس من شهر شوال، ٧ أبريل استدعاني الأمير وأعلمني بأنه اكترى لي ذلولاً مع قافلة ستتجه في اليوم التالي إلى المدينة المنورة وعرّفني بأمير القافلة.

أمير القافلة

من عادات النجديين أنهم إذا خرجوا في سفر وكانوا أكثر من شخصين أمَّروا أحدهم عليهم عملاً بالحديث: (إذا خرج ثلاثة في سفر فليُؤَمِّرُوا أحدهم). وأمير القافلة هو المرجع الأعلى في كلّ ما يتعلق بالرحلة من سيرٍ وسُرًى وقَيْلولةٍ وطعام وإرْشاد.

وكانت قافلتنا مؤلفةً من صاحبها وخادمه ومنّي، وكان صاحب القافلة أميرَها مدَّة الأحد عشر يومًا التي قضيناها في الطريق بين حائل والمدينة المنورة.

توثق عُرى حُبي لعبدالعزيز

في صباح ذات يوم من أيام سفرنا بين حائل والمدينة المنورة. وكُنَّا قد غادرنا مبيتنا فجر ذلك اليوم دون أن نتناول أي طعام، وقعت عيني عند بزوغ الشمس على قطيع من الإبل، فاستأذنتُ أميرَ القافلة في قَصدها لعل راعيها يسقيني من لبنها، فأذن لي، وأرسل خادمه معي، وحملتُ قدرًا صغيرةً، وما وصلناها حتى أدرك راعيها الفتى الذي لم يكن يتجاوز اثنتي عشرة سنة، الغرض الذي جئنا من أجله، وبادرنا بقوله: «والله إنها حُلِبَت في مراحها، ولكن إن شاء الله ربنا يبارك بها، هات القدر»، وأخذها من يدي، وأمسك بناقة استدرَّ لبَنها فملأها، وقدمها إليّ فشربتُ فهنَّأني، ثم أخذ القدر وأمسك بناقةٍ أخرى حلبَها لرفيقي فشرب فهنَّأه أيضًا؛ ثم قال: «ما بقي بها حليب لكنّ هناك في طريقكم جمل على ظهره سعنٌ[1] لبنٍ مخيض، فاملأوا منه القدْر لرفيقكم الثالث».

(١) قربة.

وقبل أن أودع هذا الفتى الرّاعي سألته: من أي القبائل أنت؟ قال: من «هتيم» ولما شكرته على صنيعه قال: طوَّل الله عُمُر عبدالعزيز، فهو الذي أمَّن لنا البلاد حتى ما يتجاسر أحدُ على الاعتداء على أحد، ولو كان مرورك من هذا الطريق قبل ست سنين لما خطر ببالك أن تحيد عن طريقك لتشرب اللبن من راعٍ مثلي، بل كنتَ تشعر بالخوف من أي زول[1] تَرَاه، وتظن أنه غزو يبتغيك، حتى لو كنت أنا الذي رأيتكم مقبلين عليَّ، كنت أخاف منكم وأستفزع عليكم العرب لأن الواحد منّا كان يغزو الآخر وينهب جِمالَه وحلاله، وقبل أن يستريح من غزوه يغزوه آخر وينهب منه ذلك المال والحلال، ويمكن أن يصادفه غزو قبل أن يرجع إلى أهله فينهبُ منه ما نهبه من غيره، وكُنَّا نعيش في خوفٍ دائم ونأكل الحرام، لكننا نعيش هالحين[2] في أمنٍ وأمان ونأكل الحلال، وهذا كله من فضل الله ثم من فضل عبدالعزيز.

لقد عقدَتْ كلمات الرّاعي الصغير الذي وصف الماضي والحال أبلغ وصف عُروة جديدة في حبل حُبّي لعبدالعزيز فازداد توثقًا، إي والله، طوَّل الله عمرَك يا عبدالعزيز. ومتَّعَ أمَّتك ورعاياك والمنتمين إليك والمحبِّين لك بحياتك العزيزة الغالية.

وغادرناه شاكرين، واتجهنا نحو البعير المحمل ذلك السِّعن من اللبن المخيض وملأنا القِدْر لأمير القافلة.

(١) خيال.

(٢) الآن أو هذا الحين.

معالم المدينة المنورة

وبعد أن قضينا أحد عشر يومًا وعشر ليالٍ في هذه الرّحلة التي مررنا فيها على حَرَّة خَيْبَر التي فيها مدينة خَيْبَرَ المشهورة بيهودها الماكرين قبل الإسلام، والمثل يقول: فلان أمكر مِن يهود خيبر.

وعَقِبَ مرورنا ظهرَ يوم ٦ شوال، ١٨ أبريل عن جبل أُحُد الذي كان يسند ظهورَ المسلمين في غزوة أُحُد المشهورة التي استشهد فيها سيّد الشهداء حَمْزَةُ عم النَّبيّ صلى الله علَيه وسلّم، وشُجَّ فيها الرّسول نفسه وكُسِرَتْ رُباعيتُه عليه الصلاة والسّلام، عَقِبَ مرورنا عن ذلك الجبل ظهرَتْ معالمُ المدينة المنوّرة، وكانت أشعة الشمس تنعكس على الهِلال المُرَكّز فوق قبَّة الحُجْرَة النبويّة المصفّحة بالرّصاص فيلمعُ كالمَرآة، فيتخيّلُه الناظر نورًا متصلاً بالسَّماء، حتى أنّ بعض الحجّاج يرجعون إلى أوطانهم، ويحلفون بالله جهد أيمانهم، أنّ النّور الذي يصل القُبَّة بالسّماء قد أعشى عيونَهم، واقشعرت منه أبدانهم، وأصبح هذا النّور المزعوم ميزان إيمان حجاج المسلمين، فالذي يراه يكون قويَّ الإيمان، والذي لايشاهده يكون ضعيفَهُ، الأمر الذي يُدخُل الشَّكَّ إلى نفوس بعض من لا يرى انعكاس تلك الأشعَّة بسبب دخولهم المدينة ليلاً.

ومع ذلك يقصّ عليَّ صديقٌ دمشقيٌّ القصَّة التالية. قال: كنا نسير قديمًا مع قافلة المحمل الشامي فأخذ الناس قبل وصول المدينة بثلاثة أيام ينادون: يارسولَ الله العادة يارسول الله فظهر من ناحية المدينة نورٌ متَّصلٌ بالسّماء ليلاً لا نهاراً وهذا في اعتقادي خيالٌ في خيال.

على أنّ النُّورَ المحمَّديَّ والأشعَّة النَّبويَّة بين أيدي جميع المسلمين وفي صدور بعضهم، وهو نور القرآن ذلك الوحي الإلهي الذي أُنْزِل على مُحَمَّد صلّى الله عليه وسلّم، وأشعَّة الأحاديث النَّبويَّة الصَّحيحة التي حدث بها مُحمَّدٌ صلّى الله عليه وسلّم، فلوساروا في هدي ذلك النّور وتحت أشعة تلك الهداية، ولو لم يتمسكوا بالقشور ويتركوا اللباب، أو لم يُصرّوا على قول الزّور ويهجُرُوا مُحْكَمَ الكتاب، لما كان حالهم ماهم عليه، ولما آل بهم الأمر إلى ماصاروا إليه.

في المسجد النَّبوي

قُبَيْلَ العَصْر وصلَت القافلةُ المدينةَ، وحطَّت عصا التّرحال خارجَ سورِها، فشعَرْتُ بقوةٍ تجتذبُني نحو المسجد النَّبويّ الذي تشد إليه الرّحال فقصدته بعد أن ودّعتُ صاحبَ القافلة شاكرًا، ودخلتُ من باب السّلام فحيَّيْتُ المسجد بركعتين في الروضة المطهرة، ثم استقبلت الحجرة النّبويةَ الشَّريفةَ وسلَّمتُ على خاتَم أنبياء الله وأشرفِ رُسُله محمد صلَّى الله عليه وسلَّم الذي بلَّغ الرِّسالة، وأدَّى الأمانة، ونصح الأُمَّة، وجاهد في الله حقَّ جهاده حتَّى أتاه اليقين، وترك لأُمَّته ماإن تمسَّكَتْ به لن تضل بعده أبدًا. جزاه الله عنَّا خيرَ ماجَزَى به نبيًّا عَن أُمَّته. كما سلَّمتُ على صاحِبَيْه وخليفَتَيْه وأفضَل النَّاس بعده أبي بَكْرٍ وعُمَرَ رضي الله عنهما.

آداب الزيارة

لا أعرف مسألةً في الدين الإسلاميِّ لم يختلف المسلمون عليها، أو لم يتطرّق إليها التحريف والتزييف والتأويل، وزيارة قبر المصطفى صلى الله

عليه وسلم إحدَى المسائل الإسلاميَّة المختَلَف عليها؛ فإن المحقّقين الذين يَسْتَبْرِئُون لدينهم ولايحومون حَوْل الحِمَى، يقولون إنَّه لا يصحُّ للمرء أَنْ يَشُدَّ الرَّحْلَ إلى القَبْر بَلْ يَشُدُّه إلى المَسجد اتباعًا لنصّ الحديث القائل: (لا تُشَدُّ الرِّحَالُ إلاَّ إلَى ثَلاَثَةِ مَسَاجِد: المَسْجِد الحَرَامِ وَمَسْجِدي هذَا والمَسْجِد الأَقْصَى) فإذا دخل المَسجدَ وحيَّاه بالصلاة سُنَّتْ زيارةُ القبر، فيحصلُ بذلك على ثواب شَدّ الرَّحْلِ إلى المَسْجِدِ وثواب زيارة قبره عليه الصَّلاةُ والسَّلام. أمَّا الذي يشُدُّ الرَّحلَ إلى القبر؛ فإنه يكون قد خالف نصَّ الحديث وحَامَ حَوْلَ الحِمَى، وعلى فرض حصوله على ثواب زيارة القبر، فإنه يُحْرَمُ من ثواب شدّ الرَّحل إلى المسجد، والحيطة التي تُضاعف الأَجْرَ والثَّوابَ، خير من الحيدة التي تقلّل من ذلك الأجر، بل التي ربما أهلَكَتْ صاحِبَهَا لأنَّه يتعوّد مخالفة نصّ الكتاب والسُّنَّة فيقع في المحظور.

ثُمَّ إنَّ آدابَ الزِّيارة تقضي بالسَّلام على الرَّسولِ صلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعلى صاحِبَيْه أبي بكر وعمر المدفونَيْن بجواره، فتقول: السَّلام عليكَ يارسولَ الله، السلام عليكَ ياأبابَكْر، السَّلام عليْكَ ياعُمَر. ولا بأس بأن تدعو لهم جميعًا فتطلب للرَّسول صلَّى الله عليه وسلَّم الوسيلَةَ والفضيلَةَ والدَّرجةَ العاليةَ الرفيعةَ، وتسأل الله أن يبعثه المقامَ المحمودَ الذي وَعَدَه، كما تسأله تعالى أن يشفّع فيك هذا النَّبي الكريم يوم القيامة وتطلب لصاحِبَيْه وخليفَتَيه أن يجزيهما الله خيرًا وأن يرحمهما ولايحرمك أجرهما أو يفتنك بعدهما.

أمَّا مايفعله العامَّة الجاهلون من دعائه صلى الله عليه وسلم كقولهم: أَجِرْني يَارَسُولَ الله، أو جئتُكَ مِنْ بلاد بعيدة فلا تردّني خائبًا، أو اشْفَعْ لي، أَو ارحَمْنِي، أَو يَسِّرْ لي، أو غير ذلك مِن الدُّعاء الذي لاَ يَرْضَى به الرَّسولُ

ولايَقْدِرُ على إجابته إلاَّ الله تَعَالَى. وأمَّا ما كان يفعله هؤلاء فيما مضى من تمسُّح بالأعتاب وتبرُّك بحديد الشبابيك والأبواب كي يرجعَ إلى بلده ويحلفَ أو يُحَلَّف بمن وضع يده على شبَّاكه، وقال له أجِرْني يَارسُولَ الله، كُلُّ هذه أُمور بعيدةٌ عن الصَّواب موقعةٌ في جحيم العَذَاب. وحجة هؤلاء الضَّالين في إقدامهم على مثل هذه الأعمال الباطلة، وحُجَّة علمائهم المضلِّين الذين يجيزون لهم ذلك هي الوَجْدُ والهِيَام والحُبُّ والغرام، كُلُّ هذه أسباب تبرّر عندهم دعاءَ الميّت وسؤَالَه ما لا يقدر عليه بل مايبرأ منه إلى الله.

أمَّاالحبُّ بمعنى الطَّاعة، والوجدُ بمعنى الاتِّباع، والهِيامُ بمعنى اقتفاء الأثر، والغرام بمعنى العمل بما وَرَدَ في الخَبَر، فكلُّ هذه معانٍ بعيدة جدًّا عن أفهام هؤلاء الناس وأمَّا الحبُّ والهيامُ والوَجْدُ والغرامُ بمعنى اتّباع أوامر الله التي أُنزلت على هذا النَّبي الكريم وبمعنى طاعته فيما أمر واجتناب ما نهى عنه وزجر، فإنها سحيقةٌ عن عقولهم ومداركهم.

عجبٌ والله أمر هؤلاء القوم؛ فإن المرء إذا أحبَّ إنسانًا كان له طوع البنان، فما بالك بمن يدَّعي حُبَّ أشرف الخلق على الإطلاق، وشفيع الأنام يوم العرض على الخلاق؟، أليس الأجدر به أن يُطيع هذا المحبوبَ ويتَّبع سبيله القويم الذي قال الله فيه : ﴿قُلْ هذِهِ سَبِيلي أَدْعُو إلى الله على بصيرةٍ أنا ومن اتَّبَعَني وما أنا من المُشْرِكين﴾ (سورة يوسف، آية: ١٠٨).

وقال تعالى: ﴿وأَنَّ هذَا صراطي مُسْتَقيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تتَّبِعُوا السُّبلَ فَتَفَرَقَ بِكُم عَنْ سَبِيلِهِ ذلِكُم وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُم تَتَّقُونَ﴾ (سورة الأنعام، آية: ١٥٣).

اللهمَّ إن حبي لنبيّك محمد صلى الله عليه وسلم يفوق حبّي لأهلي ومالي وولدي ونفسي التي بين جَنْبَيَّ، ولكن بالمعنى الذي تريده أنت يارب والذي يرضاه نبيُّك الكريم، لا بالمعنى الذي يفهمه أصحاب الحبّ الكاذب والغرام المزيَّف، الذين تعلم يارب أنهم كارهون، وأنهم في غير سبيلك سائرون، فإنك الرحمن المستعان على مايصفون.

ومما يُشكر عليه عبدالعزيز بن سعود أنه أنشأ هيئة للأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر يعمل تحت إدارتها جنودٌ يرشدون الزائرين إلى آداب الزِّيارة، ويمنعون الجاهلين من التمسُّح بحديد المقصورة النبوية أو السجود أمامها أو غير ذلك من المخالفات.

في دائرة الشرطة

وبعد الانتهاء من واجب الزيارة، قصدت دار الإمارة للسلام على أمير المدينة المرحوم مشاري بن سعود بن جَلَوي جريًا على العادة المتَّبعة في نجد، فسلَّمت عليه، وأعلمتُه بمقدمي عن طريق «حائل»؛ فإذا به يحادث مدير الشرطة بالتلفون، ويطلب منه إجراء تحقيق دقيق معي لأنه اشتبه في أمري، وأرسلني إليه صحبة أحد أتباعه، فأُدخلت عليه، وكان مدير شرطة المدينة في ذلك الوقت هو مَهْدي بك مدير الأمن العام الآن فنادى مُعاونه حُسْني أفندي الذي أخذ يتهكَّم بي، ويقول لَمهدي بك:«انظر كيف لبس العمامة البيضاء فوق الغترة الحمراء تشبُّهًا بالإخوان حتى يخفي أمره».

أما الأسئلة التي وُجِّهت إليَّ فهي:

١- ما اسمك واسم أبيك ومن أي البلاد أنت؟

٢- ما هي البلاد التي مررت بها في طريقك إلى المدينة المنورة؟

٣- لماذا جئتَ عن طريق الصَّحراء وبدون جواز سفر؟

٤- ما هي وِجْهَتُك وما غرضك من هذه الرِّحلة الشاقة؟

وقد أجبت عن هذه الأسئلة، وتغيَّرت لهجة حُسْني أفندي مُعاون الشرطة لمَّا عرف اسم والدي، وأخبرني أنه كان كاتبًا بمالية القدس التي كان والدي يتولى إدارتها، وأرسلَتْ أوراق التحقيق إلى الأمير بعد المغرب، وكان أمير القافلة قد وصل إليه وسلم عليه، وسلمه كتابًا من ابن عَمِّهِ أمير حائل يوصيه بي، فأصدر أمره إلى الشرطة بإطلاق سراحي، وبمراجعته عند إزماعي السفر إلى مكة المكرمة.

أيَّام المدينة

كانت مدة إقامتي في المدينة المنورة ثلاثة عشر يومًا لازمتُ فيها المسجد النبوي، ونظمت نفسي في حلقة الدرس الذي كان يلقيه الشيخ محمد علي ابن تُركي فلمست فيه سعة الاطلاع والورع، وقررتُ العودة إلى المدينة بعد الحج لتلقي العلم عليه وللأخذ عنه، وهكذا كنت أينما حللتُ أغترف من بحر العلم ماءً عذبًا فراتًا يروي الظمآن ويغسل الأدران.

إلى مكة المكرمة

وفي ٢٧ شوال، ٣٠ مارس ذهبتُ إلى دار الإمارة وعرضت على الأمير رغبتي في السفر إلى مكة المكرمة فأرسلني إلى شيخ المخَرِّجين[١] كي يستأجر لي بعيرًا أركبه، وأمر بإعطائي مؤونة السفر من بيت مال المسلمين أيضًا، وسلَّمني كتابًا يقوم مقام الكوشان[٢].

وبعد ظهر ٢٨ شوال، ٣١ مارس كنت على ظهر بعيري خارجًا من باب العَنْبَرِيَّة مع قافلة كبيرة ما إن وصلت «آبار علي» على بُعد ثمانية كيلومترات من المدينة حتى أوقفتْ سيرها، وأخذ الحجاج جميعًا يغتسلون غسل الإحرام، ثم خلعوا ملابسهم المَخِيطَة ولبسوا الزِّيّ الموحَّد الذي أصبح فيه الأمير والحقير والكبير والصغير والغني والفقير سواء.

وقد قطعت القافلة الطريق بين المدينة المنورة ومكة المكرمة في أحد عشر يومًا أناخت أثناءها في المحطات الآتية:

---

(١) الذين يخرجون القوافل.

(٢) تذكرة مرور.

مسلسل	اسم المحطة	المسافة بينها وبين المدينة	المسافة بينها وبين المحطة التالية
٠	المدينة المنورة	٠	٨
١-	آبار علي	٨	٤٠
٢-	قريش	٤٨	٢٨
٣-	بئر الراحة	٧٦	٨
٤-	مسيجيد لم تنخ القافلة فيها	٨٤	٣٣
٥-	شفية	١١٧	٣٥
٦-	آبار ابن حصاني	١٥٢	٦٨
٧-	مستورة	٢٢٠	٤١
٨-	رابغ	٢٦١	٥٥
٩-	القضيمة	٣١٦	٤٥
١٠-	عسفان	٣٦١	٤٢
١١-	وادي فاطمة	٤٠٣	٣٥
١٢-	مكة المكرمة	٤٣٨	-

كانت هذه الطريق في العهدين التركي والشريفي مأوى لقطاع الطرق، ومركزًا لمن يعيثون في الأرض فسادًا في المساحة الواقعة من «جُدَّة» إلى الحناكية شمالاً ومن المدينة إلى بُوَاط[1] غربًا، وكان قُطَّاعُ الطريق والمفسدون يفرضون على قوافل الزائرين إتاوات يحدّدونها حسب تقديرهم، ولكم كانت القوافل تُمنَعُ من متابعة السَّير فتعود أدراجَها من رابغ بعد أن تقطع نصف الطَّريق، بل كثيرًا ماكان الجمَّالون المرافقون للقافلة يعتدون على الحجاج فيغافلون أحدهم قائمًا كان أو نائمًا، ويضربونه على صدغه ضربة واحدة تكفي للإغماء عليه؛ بل لقتله أحيانًا، ويسلبونه نقودَه، فإن صَحَا بعد ذلك كان طويلَ عُمُر، وإلاَّ فيكون قد ذهب ضحيةَ اضطراب حبل الأمن في بلاد يجب أن تكون آمنَ بلاد الله.

ولم تكن طريق مكة - المدينة هي المقطوعة وحدها بل كانت طريق جُدة - مكَّة مقطوعةً أيضًا رغم القُلَل العديدة الواقعة على امتدادها والعامرة بالجند لحفظ الأمن.

كان الحاجّ إذا خرج من بلده يودعه أهله وداع الجنديّ المسوق إلى ميدان القتال؛ لأن المحيطين بالبلد الحرام الذي جعله الله مثابةً للنَّاس وأمنًا مِمَّن ينتسبون إلى العُروبة والإسلام، ويَتَسَمّون بأسماء عربيَّة إسلاميَّة، كانوا لهم بالمرصاد، بل المَسُوقُ إلى ميدان القتال آمنٌ على نفسه؛ لأنَّه مسلَّح بسلاح مُماثِلٍ لِسِلاح عدوّه، ويمكنه أن يخندق أو يَكْمُن وراء المتاريس ويوجه

(١) تقع بواط على مسافة ٥٧ كيلو متراً غربي المدينة المنورة، وهي إحدى محطات سكة الحديد الحجازية.

لعدوه رصاصةً مقابل رصاصة وسهمًا ضد سهم. أمَّا الحاجُّ الأعزلُ المطمئنُّ المستسلمُ فبأيِّ سلاحٍ يردّ عادية العادين وبأيّ سهم يطعن صدور المفسدين؟

أمَّا الآن، فقد أصبح الحاجُّ كالمسافر إلى نُزهَة، يَغْدُو ويَرُوحُ لايخافُ غازيًا ولا يخشى عاديًا، بل أصبح الذي كان سيفًا قاطعًا لحبل الأمن والأمان يخشى الحاجَّ ولا يجرؤ على الاقتراب منْ خَيْمَته بله دخولها والاعتداء عليه فيها، فانقلبت الأوضاع، ووقعت المُعْجزَة، وأصبحَتْ بلادُ الحرمَيْن بَلْ جميعُ البلاد التي تظلّها راية عبدالعزيز آمَنَ بلاد الله طرًّا، فمن الذي تسمح له نفسه بعد هذا الحق الأبْلَج بحمل مثقال ذرَّة منْ كُرْه أو بغضاء لعبد العزيز وحكومته وقومه؛ بل من ذا الذي لايفتح قلبَه ولايشق صدره كي يتخذَ هذا الرجلُ مكانًا فيه، فيعمّره بالإيمان واليقين؟

في مكة المكرمة

وبعد انقضاء أربعة أشهر وعشر من أيام الظَّعْن والإقامة، أدَّتْ بي خاتمةُ المطَاف إلى مَهْبِط الوَحْي، ومنبعِ الهُدَى ومُنْبَثَق نورِ النُّبُوَّة، فبادرتُ إلى الحرم المكي مساء ١٠ ذي القعدة، ١١ مايو. وما إن وقع ناظري على بيت الله الحرام، حتى اقشعرَّ بدني وذرف دمعي، وهلَّلتُ وكبّرتُ، وردَّدت:

اللّهُمَّ أنْتَ السَّلاَمُ، وَمِنْكَ السَّلاَمُ فَحَيِّنَا رَبَّنَا بِالسَّلاَمِ وَأدْخلْنَا الجنَّةَ دَارَ السَّلاَمِ، تَبَارَكْتَ وَتَعَالَيْتَ يَاذَا الجَلاَلِ وَالإكْرَام؛ اللّهُمَّ زِدْ هذَا البَيْتَ تَشْرِيفًا وَتَكْرِيمًا وَتَعْظِيمًا وَمهَابَةً وَرفْعَةً وَبِرًّا وَزِدْ يَارَبِّ مَنْ شَرَّفَهُ وَعَظَّمَهُ وَكَرَّمَهُ مِمَّنْ حَجَّهُ وَاعْتَمَرَهُ تَشْرِيفًا وَتَكْرِيمًا وَتَعْظِيمًا وَمَهَابَةً وَبِرًّا.

وطفتُ سبعةَ أشواط طواف القدوم، وصلَّيتُ رَكْعَتَي الطَّواف خلف مقام إبراهيم تنفيذًا لأمر الله تعالى القائل ﴿واتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصلًّى﴾ (سورة البقرة، آية: ١٢٥)، وشربتُ مِنْ ماء زَمْزَم، وسألتُ الله علمًا نافعًا ورزقًا واسعًا وشفاءً من كُلِّ داء، ثم سعيتُ بين الصَّفا والمَرْوَة، وحلقتُ، وحلَلْتُ الإحرام، فتَمَّتْ بذلك أعمال العُمْرَة التي أحرَمتُ بها. وألقيتُ عصا الرِّحلة في ذلك الوادي المبارك.

ولم أكن أملك يومَ وصلتُ مكَّة المكرَّمة سِوَى نفقة بضعة أيَّام، وفي اليوم التالي لوصولي تعرَّفتُ بالشيخ عبدالرحمن بلُّو مُطَوِّف فلسطين الذي ظنَّ باديَ الرَّأي أنَّ جَيْبي عامر، فعاتبني لأني لم أفِدْ عليه، وسألني إن كنتُ في حاجة إليه لتطويفي، فشكرتُه، وأفهمتُه أنّي قضيتُ أعمال العُمْرة، وأنَّه بإمكاني الطَّوافُ وحدي تنفُّلاً، لأنّي تعلَّمتُ في الطَّريق كلَّ ما يتعلَّق بأعمال الحجِّ والعُمْرَة من أركانٍ وواجباتٍ وسُنَنٍ، كما أفهمته أنّي رقيقُ الحال، فاستخدَمَني كاتبًا لتسجيل أسماء حُجَّاجه الذين أخذوا يَفِدُون على مكَّة ابتداءً من يوم ١٥ذي القعدة، ١٦ مايو. كما اشتغلتُ في كتابة رسائل الحُجَّاج لأقاربهم مقابل إكراميَّة تتراوح بين خمسة قروش وعشرة عن كل كتاب، وكان عدد حجاج فلسطين في ذلك العام ٤١٠حجاج، بينما كان عدد الحجاج الجاويين سبعين ألفًا، وبعد أن أدَّيتُ فريضةَ الحجِّ وقمت بواجب العج والثج كان قد جُمِعَ لديَّ عشرون جنيهًا إنجليزيًّا ذهبًا من أجْر عملي عند المطوِّف ومن كتابة رسائل الحجاج.

العودة إلى المدينة

وتنفيذًا لما عقدتُ العزمَ عليه في أثناء إقامتي القصيرة في المدينة المنوَّرة من طلب العِلْم على الشيخ محمد علي بن تُرْكي العَالِم النَّجْديّ، أزمعتُ

العودةَ إليها، ورجوت الشيخ عبدالله بن بليهد رئيس القضاة الذي كنتُ ضيفَه في حائل أن يوصي بي الشيخ، فكتب إليه الكتاب الآتي:

«بِسْمِ الله الرَّحْمنِ الرَّحِيم

منْ عبدالله بن سليمان آل بُلَيهِد إلى جناب المكَرَّم المحترم الأخ محمَّد بن تُرَكي سلَّمه الله وتولاَّه.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، موجب الخط السؤال عنكم وعن مَنْ لديْكُم نرجو الله أن تكونوا بعافية، ثم يصلكم حامل الخط محمد التَّميمى وقد توسَّل بنا إليكم في طلب العِلْمِ عليكُم والأَخْذِ عنكم، فنرجو أن يكون محلَّ الرِّعاية منكم، ومنا السلام على من لديكم، ومن لدينا الأولاد والعِيَال يسلّمون والسلام، ٢٠ الحجة سنة ١٣٤٥هـ

«رئيس القضاة»

وفي ٢٥ ذي الحجة، ٢٥ يونيه غادرتُ مكَّة إلى جُدَّة حاملاً هذا الكتاب، وتعرَّفتُ فيها برفيق يُدعى صادقًا اتفقتُ معه على السَّفر إلى المدينة عن طريق يَنْبع، فركبنا سُنْبُوكًا[1] ماكاد يُغادر مياهَ جُدَّة في أَوَّل الْمُحَرَّم سنة ١٣٤٦هـ ، ٣٠ يوليه سنة ١٩٢٧م حتى عاكسَتْهُ ريحٌ جعلتني ورفيقي نقرِّرُ مغادرته في رابغ لأنَّ المسافةَ بين المدينة ورابغ تَقَرُبُ من المسافة بينهما وبين

(١) نوع من السفن الشراعية.



يَنْبُع وعرضتُ الأمر على رَئِيس السّنبوك فرفض رفضًا باتًّا، وقال: إنّنا نعمل على خراب بيته؛ لأن اسْمَيْنَا مكتوبان في البوليصة وماذا يقول للموظفين المختصّين في يَنْبُع إذا سألوه عنَّا؟، وحاولنا إقناعَه بإعطائه إقرارًا كتابيًّا بأنَّنا نزلنا في رابغ، فذهبَتْ محاولتنا عبثًا، فاضطررنا إلى البقاء في السّنبوك مستسلمين لقضاء الله.

وبعد مرورنا عن رابغ وابتعادنا عن مياهها، قابلَتْنا ريحٌ عاصفٌ قطَعَتْ حبلَ الشّراع الذي أخذ يُرفْرِفُ في الهواء، فاضطرب سير السّنبوك الذي كان يختفي آنًا ويظهر آنًا آخر بين جبال من أمواجِ بحرٍ خِضَمٍّ مُتلاطم، وارتبك البحَّارة، وأخذْتُ ورفيقي نُساعدُ رَئِيسَهُم على الصُّعود إلى رأس السَّارية لعلَّه يتمكَّن مِنْ إعادة الشَّراع فَتُنْقَذُ من الهلاك المحقَّق، وأخذ البحَّارة الذين كان أكثرهم يمانيين يستغيثون بالنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليْهِ وسلَّم وبخديجة وعليٍّ رضي الله عنهما وغيرهم، وكنتُ ورفيقي نستغيثُ بخالق النَّبيّ وخديجة وعليّ، وكنا في الوقت نفسه نسهم فيما نقدِرُ عليه من أسباب النَّجاة، حتى تمكَّن الرَّئيس من مَسْك الشّراع وربطه، فسار السّنبوك بسم الله مَجْرَاهُ ومُرْسَاه.

ولمَّا هدأ رَوْعُنا، قلتُ لرفيقي الشيخ صادق الفلسطيني الذي كان طالبًا بالأزهر ثمَّ هاجر إلى الحجاز وسافر إلى نجد طلبًا للعلم، واعْتَنَقَ عقيدةَ التَّوحيد، قلت: انظر ياأخي كيف أنَّ النَّجديين يُرشِدون هؤلاء النَّاس إلى عبادة الله وحدَهُ ودعائه وحدَهُ والاستعانة به دون سواه، ثم انظر كيف يَصدِفون عن الحقّ ويُصرّون على الباطل، ويأبون إلاَّ دُعاء من لايستجيبون لهم بشيء إلى يوم القيامة حتى في أشدّ حالات الخَطَر؛ حقيقةً أنَّ شرْكَ هؤلاء أعظمُ من شِرْكِ الجاهليين قبلَ الإسلام، أولئك الذين كانوا يُوحِّدون

الله توحيدَ الألوهية وقتَ الشدائد، ويوحِّدونه توحيد الربوبية فقط أيام الرَّخاء، أولئك الذين قال الله فيهم:

﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ﴾ (سورة الإسراء، آية: ٦٧)، وقال: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ (سورة العنكبوت، آية: ٦٥).

وبعد ستَّة أيَّام سلَّمنا الله فيها من أخطار هذه الرِّحلة، وصلْنا يَنْبُع يوم ٧ المحرم، ٦ يوليه بينما الباخرة تقطع المسافة بين جُدَّة ويَنْبُع في يومٍ واحد والسفينة الشِّراعيَّة التي تؤاتيها الرِّيح تقطعها في يومَيْن أو ثلاثة أيَّام على الأكثر.

وفي ١٠ المحرم، ٩ يوليه غادرنا يَنْبُع مع قافلة متجهة إلى المدينة سيرًا على الأقدام، فقطعنا المسافةَ بينهما في خمسة أيَّام. ووصلنا المدينةَ المنوَّرةَ في صباح ١٥ المحرم، ١٤ يوليه.

طلب العلم

وبمجرَّد وُصُولي سألتُ الشَّيْخَ إبراهيم بْنَ تُرْكى التَّاجرَ بالمدينةِ عن أخيه الشيخِ محمَّد بنِ تُرْكي الذي هاجرتُ إليه لطلب العلم عليه، فقال لي: إنّه سافر إلى مكَّة منذ يومين بناءً على طلب جلالة الملك، وإنَّه سيعود بعد أسبوعين، فنزلت غرفةً بأحدِ أَرْبِطَة المدينة، ومضى على إقامتي شهران قضيتهما في دراسة التوحيد على الشيخ محمود شُوَيل، والقراءات السَّبع على مُدرِّس مصري بالمسجد النَّبويّ.

ولما لم يبقَ معي إلا اليسير من النُّقود، وقد علمتُ أن الشيخ محمد بن تُركي تَولَّى مركزًا قضائيًّا كبيرًا بمكَّة المكرَّمة، قرَّرتُ العودةَ إليها فراجعتُ الأمير مِشَاري بن جَلَوي فحمَلَني هذه المرة على سيَّارة قطعَتِ المسافةَ في يومين.

ووصلتُ مكَّة، وسلَّمتُ على الشيخ في مسكَنِه بِرُباط باب الزِّيادة، ولازمتُ بعد ذلك حلقَة دَرْسِه في الحديثِ بعد صلاة المغرب، وفي الفِقْه بعد صلاة الفجر.

في ميدان العمل

سعيتُ في طلب الرِّزق فاستُخدِمتُ مأمُورَ بَرقٍ للُّغات الأجنبيَّة بإدارة البرق والبريد ابتداءً من ٢٨ ربيع الأول سنة ١٣٤٦هـ، ٢٤ سبتمبر سنة ١٩٢٧ ثم استقلتُ بعد شهرٍ واحدٍ واشتغلتُ كاتبًا عند تاجرٍ معروفٍ ما لبثَ أن اتَّخذني شريكًا مُضَاربًا في محلٍّ مستقلٍّ لبيع الأقمشة بسوق المدَّعَى، ولما أعلنَتْ مديرية الشُّؤون الخارجيَّة التي أصبحَتْ بعد ذلك وزارة الخارجيَّة عن حاجتها لكاتبٍ مُلِمٍّ بلُغةٍ أجنبيَّة، تقدمت مع المتقدمين، وكنت أول الفائزين فاستخدمتني مُسجِّلاً لأمور التَّابعية، وأسندت إليَّ عملاً إضافيّاً في موسم الحج هو استخراج شهادات وفيات الحجاج التي تُقَدَّم لبيت المال وتحصر بموجبها تركاتُ المتَوفين، ولما قُسمت الخارجية إلى ثلاث شُعَب: سياسية وإدارية ومطبوعات، أسندت إليَّ إدارة الشعبة السياسية، ثم عُيِّنْتُ مُسجِّلاً للشركات. وعلى الرغم من أن هذا المنصب الأخير كان مستقلاً يتبع صاحب السمو النائب العام لجلالة الملك مباشرةً فإن الخارجية

احتضنته كي أظل قائمًا بإدارة شعبتها السياسية وسكرتاريتها، إلى أن شاءت الأقدار بمغادرتي تلك الديار في ٢٣ ربيع الأول سنة ١٣٥٠ هـ ، ٧ أغسطس سنة ١٩٣١م.

إيمان العين بعد الأُذُن

في مساء يوم من أيام شهر ربيع الآخر سنة ١٣٤٦هـ، سبتمبر سنة ١٩٢٧م كنت في طريقي بسيارة إلى القصر الملكي الواقع في أقصى البلد الحرام في طريق منًى، صُحبَة العَالِم السَّلفي الفاضل الشيخ محمد بهجت البيطار، مدير المعهد السعودي في ذلك الوقت، وكان الغرض من الذهاب إلى القصر السلام على جلالة الملك، ولم أكن في طريقي ملتفتًا لحديث الأستاذ، فقد كنت في شُغلٍ شاغلٍ؛ لأن هذه أول مرة أقابل فيها مَلِكًا، وكنت أتخيَّل الملك متربعًا فوق عرشه في قاعة لا يدخل عليه فيها إلا المختصون والمقربون الخاضعون الرَّاكعون عند الأعتاب، السَّاجدون اللاثمون للأذيال المغَطِّية لركْبَتَي جلالته والممتدة إلى منتصف القاعة، وكنت أتصور الملك متوَّجًا بتاجٍ من الذهب الوهَّاج، ومرتديًا حلة من الحرير الأطلس والديباج، وما طرد تخيُّلي وتصوُّري غير تنبيه الأستاذ لي بوصولنا القصر، فدخلناه ورَقينا إلى سطح جناحٍ من أجنحته قد فُرِشَت جوانبه بمقاعد عربية اقتعدها عدد كبير من الرجال، واتجهنا نحو رُكنه الشَّرقي حيث يجلس رجل بادر إلى القيام فسلم عليه الأستاذ، ووقفتُ على أطراف أصابع قدميَّ، كما أومأ هو أيضًا لأتمكن من تقبيل جبهته، وأجلس الأستاذ عن يساره وأجلسني عن يمينه، ولما قدَّمني الأستاذ إليه أخذ يلتفت إليَّ بين لحظة وأخرى سائلاً عن الصحة والحال. ولم يكن هذا الرجل الطويل القامة المليء الجسم الباسِم الوجه ذو الهيبة والوقار، لم يكن يختلف عمَّن حوله من الرجال في الزّي إلا بغترته الحمراء وعقاله المقصَّب أما العباءة والثوب فلم يكونا ممتازين عما يلبسه الرجل العادي؛ بل إن الرجل العادي

ليلبس أحسن نوعًا وأغلى ثمنًا مما يلبسه هو، وأما الحذاء فليس إلا نعلين نجديتين يحتذيهما أفقر الرجال.

كان هذا المتواضع في سجيته الديمقراطي في خِلْقَته هو عبدالعزيز بن سعود سيد الجزيرة العربية الذي عَشِقَتْهُ أذني قبل عَيني وحبَّبَتْهُ لي أعماله قبل أقواله، وكان سببًا في تغيير مجرى حياتي.

وهأنذا بين يديه أرى شخصه وأسمع كلامه لأول مرة؛ وها هو ذا يضرب بريشة بيانه وإفصاحِه على وتري الحساس فتطرب النفس ويرقص القلب ويلهج اللسان بالدعاء: طوَّل الله عمرك يا عبدالعزيز، وها هي ذي شخصيته البارزة الجبارة تؤثر فيَّ تأثيرًا سحريًّا، وتجتذبني إليها اجتذابًا قلبيًّا، فتتوثق عُرَى المحبَّة، وتتقوى صلة الود والإخلاص، وتتمنى النفس لو فَنِيَت في خدمته، واضمحلت في طاعته.

أما بيانه وإفصاحه؛ فهو ذلك التعليق الجميل على ما يقرأه مُقرِئُه من تفسير القرآن الكريم والأحاديث النبوية، وتلك الدُّرر الغوالي من النصائح التي ينثرها على الحاضرين في ذلك المجلس الليلي العام الذي يبدأ من بعد صلاة العشاء إلى الساعة الرابعة العربية، حيث ينصرف الجمع لا ليأوي هذا الرجل إلى فراشه ولكن ليجلس مجلسًا آخر مع المختصين من رجاله ومستشاريه لبحث مهام الدولة، وقد يمتد هذا المجلس الخاص إلى منتصف الليل.

وأما شخصيته؛ فهي تلك الشخصية التي لم تُنْسِها مظاهر الملك مسؤوليَّتها عن رعيَّتها، ولم يُبعدها جبروتُ السلطان عن طاعة الرحمن،

فكما أنه ينظر في الكبير والصغير والجليل والحقير من شؤون مملكته ورعيته، ويقرأ كل ما يُرفع إليه من برقياتٍ وكتبٍ وتقارير، ولا يسمح لأحد من رجاله والمقربين إليه بفتح شيء منها، فلا يترك شاردة ولا واردة من أحوال بلاده ورعاياه إلا ويكون قد ألم بها ووقف على أسرارها، ويرد على كل ما يُرسل إليه من كُتبٍ وبرقياتٍ من مختلف الأنحاء والجهات، وقد فتح بابه لكل مظلوم، وأصغى لكل شاكٍ مهضوم، حتى إن برقية يرسلها إليه أقل الناس شأنًا في مملكته تكفي لإثارة اهتمامه، فيُصدر أوامرهُ البرقية للجهات المختصة بالتحقيق في الشكوى وإعادة الحق إلى نصابه... علاوة على كل ذلك؛ فإنه لم ينس حق الله عليه من صلاة وصيام وزكاة وحج ودروس دينية وذكرٍ لله تعالى وتسبيح؛ فهو يستيقظ قبل فجر كلّ يوم لقراءة القرآن فإذاً أذَّن الفجر صلاه حاضرًا، ويواظب على أداء بقية الصلوات الخمس مع الجماعة في مسجد القصر، وعلى صلاة الجمعة في المسجد العام، ولا يترك مقعده في المسجد عَقِبَ الصلاة إلا بعد أن يردد: سُبحان الله والحمد لله والله أكبر ثلاثًا وثلاثين مرة، وبعد أن يدعو الله تعالى بما شاء من الدعاء، ويقرأ الأوراد التي صحَّت نسبتها إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وقد كنت واقفًا خلفه مرة في صلاة مغربٍ بالقصر الأخضر بجُدَّة، وبقيتُ جالسًا مكاني خلفَه بينما انصرف جميعُ المصلين، فسمعته يردّد دعاء اللهم أجرنا من النار فأمَّنتُ على دعائه وردَّدت في نفسي: إي والله، أجارك الله من النار... وهو يعدّ العبادة بمثابة فترات هدوء لاستجماع القوى ومحطات راحة لتجديد النشاط، كي يتمكن من استئناف حمل أعباء المُلْك الثقيلة ومسؤولياته العظيمة مقدّرًا معنى الحديث:

كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيَّتِه... وعلى الرغم من هذا وذاك، فلا أعباء المُلْكِ ولا واجبات العبادة تمنعه من أداء حق أهله وولده عليه، ومع أنه أنجب إلى الآن ستين ولدًا منهم ثلاثة وثلاثون ذكرًا وسبعٌ وعشرون أنثى، فلا تخفى عليه خافية من شؤونهم ولا من شؤون أولادهم وأحفادهم جميعًا، فتراه يُلاعب الرَّضيع ويُداعب الطفل، ويُمازحُ اليافع ويُشجعُ الفتى، ويُؤاخي الشَّاب، ويُمرِّن العاقل بإسناد مهام الأمور إليه، وهو رحيم بأصغرهم لا يطيق فراقه.

وهكذا كلما مرَّت الأيام وتعددت المقابلات وازداد الاتصال كان حب عبدالعزيز يتمكن من قلبي، وكلما اطَّلعتُ على سيرته ووقفتُ على حقيقته كان يأخذُ عليَّ تفكيري ولُبِّي، وأصبح مقصدَ دعائي بعد كل صلاة، ومَعْقدَ رجائي في هذه الحياة، وهأنذا أوضح فيما يلي بعض النواحي الخُلُقيَّة والسياسية من حياته:

أما قبوله النصح من أي إنسان؛ فإنه لما قَدِم جلالته من نجد إلى مكة المكرمة في حج سنة ١٣٤٦هـ/ ١٩٢٨م رُفِعَت الأعلام على النوافذ والأبواب ونُصبَتْ أقواسُ النَّصر في كل حي من الأحياء من أموال جمعها مشايخ الحارات من أغنياء البلد وفقرائه، أما الأغنياء فكانوا يدفعون عن طيبة خاطر؛ لأن ما يُطلب منهم لإقامة الزينات لم يكن شيئًا مذكورًا بجانب المبالغ الضخمة التي كانوا في العهد الشَّريفي يُخيَّرون بين دفعها وبين سكْنى القَبْو، وأما الفقراء الذين يعتقدون أن أولادهم أولى وأجدر وأحق بالقرش الذي يدفعونه لذلك الغرض، فكانوا يظهرون امتعاضهم وينتقدون هذه التصرفات انتقادًا مرًّا...

وكنت في ذلك الوقت حديثَ عهد بالاستخدام في وزارة الخارجية السعودية، فكتبت لجلالة الملك كتاباً عرضتُ فيه أن بعض الحجاج الذين سمعوا في بلادهم بتمسُّك جلالته وحكومته بالشريعة الإسلامية وإقامة شعائرها وتنفيذ حدودها، سألوني عمَّا إذا كانت هذه الزينات التي تُقام لجلالته مما تقضي به الشريعة أو تمت إليها بصلة؟ فأجبتهم أنها ليست من الشريعة وأن جلالته لم يأمر بها ولكنَّ أهل البلد هم الذين أقاموها لإظهار شعورهم نحوه. وذكرت لجلالته أنه ما من أحد يدفعُ ما يُطلب منه لإقامة الزّينات عن طيب خاطر، واقترحتُ منعَ إقامة الزّينات في المستقبل، وإن كان لابد من جمع المال فليُجمع لبناء ملجأ للأيتام، وللعجزة المتاجرين بالقرآن في المسجد الحرام، وختمتُ كتابي بأني تجرَّأتُ على كتابته بنيَّة النُّصح الواجب لخاصة المؤمنين؛ فإن كان ما ذكرتُ حقًّا فمن الله والحمد لله، وإن كان باطلاً فمن نفسي ومن الشيطان وأستغفر الله ... والذي حدث بعد ذلك أن منعت الزينات، ثم أسست في مكة المكرمة دار للأيتام وأخرى للعجزة والمشَوَّهين.

وفي سنة ١٣٤٩هـ / ١٩٣٠م. احتفل بيوم جلوس الملك عبدالعزيز وحضر الاحتفال الذي نُظِّم في مدينة جُدَّة ممثلو الدول السياسيون وجمٌّ غفير من وجوه الأقطار العربية ومندوبي صُحُفِها، ولكن العلماء اعترضوا على ذلك لمخالفته للسّنة، فنزل الملك عبدالعزيز على رأيهم ولم تحتفل به البلاد بعد ذلك؛ لأن عبدالعزيز لا يهتم بما يتعلق بشخصه.

وما دمنا في صدد الاحتفالات أقرر هنا أن المملكة العربية السعودية لا تعترف إلا بعيدي الفطر والأضحى كأعياد رسمية، ولا تحتفل بالأعياد التي صبَغَتها البلاد الإسلامية الأخرى بالصبغة الدينية كأعياد رأس السنة

الهجرية وعيد المولد النبوي والموالد الأخرى وليلة الإسراء والمعراج وليلة نصف شعبان وليلة القَدْر وتوديع المحمل واستقباله، ولا بالأعياد التي لها صبغة سياسية كعيد الجلوس وعيد ميلاد الملك وعيد الاستقلال وعيد الدُّستور وعيد الجهاد الوطني وغير ذلك، ولا بالأعياد ذات الصبغة الأدبية كأعياد ميلاد الأمراء، كما أنها لا تحتفل بالذكريات السنوية لوفاة الملوك والأمراء والعظماء.

أما نقاء سريرته وتثبته من أنباء الفاسقين؛ فإن حكومة جلالته انتدبتني سكرتيرًا للوفد النجدي للمؤتمر الذي عُقد في عمَّان عاصمة شرق الأردن سنة ١٣٤٩هـ / ١٩٣٠م لتحقيق حوادث الغزوات والمنهوبات بين قبائل الحجاز ونجد وبين قبائل شرق الأردن، وكنا متصلين بحكومتنا برقيًّا عن طريق محطة الجوف اللاسلكية التي وُصِلَتْ بمحطة مطار عمَّان أيام انعقاد المؤتمر، وقد وَقَفَت أعمال المؤتمر مدة أسبوعين لسببٍ ما، فاستأذنت رئيس الوفد في السفر إلى دمشق مدة يومين لشراء بعض كتب الحقوق، وسافرت ورجعت بعد أن بِتُّ فيها ليلتين، وبينما كنت ذات يوم واقفًا أمام الفندق الذي كان الوفد نازلاً فيه في ضيافة حكومة شرق الأردن إذا برسول يُبَلِّغني وصول برقيةٍ باسم الوفد لمحطة المطار اللاسلكية، ومع أننا كنا نرسل أحد أتباع الوفدِ لاستلام البرقيات، عَنَّ لي هذه المرة أن أذهب بنفسي للنُّزهة، ووصلت المطار، وتسلمت البرقية وما فضضتها وحَلَلتُ رموزها حتى كِدتُ أزهق لفرط الدهشة... لقد كانت مرسلةً من وزارة الخارجية، وكان هذا نصها:

«ما دمتم مشتبهين بأمين التميمي سنعمل طريقة لسحبه إلى هنا بصورة مضمونةٍ فلا تُظهروا له ذلك خوفًا من الفرار».

فيا للعار، التميمي الذي أخلص لابن سعود بل تفانى في الإخلاص له عن عقيدة وإيمان يُشتَبه في أمره؟ إن هذا لشيء يُرَاد. وقدَّمت البرقية - بعد حَلّ رموزها - إلى رئيس الوفد الذي تغير لونه، وتظاهر بالعَجَب والاستغراب وتساءل عن سبب إرسال وزارة الخارجية لهذه البرقية وأنكر علمه بمقدماتها، وأظهر استعداده لإزالة أثرها، وسلَّمني كتابًا لوزارة الخارجية يوصيها بي ويقرر قيامي بواجبي على أحسن وجهٍ وأتمه.

ثم وصلتني برقية باسمي من وزارة الخارجية هذا نصها:

«نظرًا للحاجة الماسة لوجودكم هنا وبالأخصّ لوجودكم عند عائلتكم، أبحروا على الباخرة التي تقوم من السويس أول نوفمبر».

لقد كان شعوري غريبًا وتأثري شديدًا، ودهشتي عظيمة جدًّا لهذا التصرف العجيب الذي لا أعلم له سببًا غير الجهل، وأخذت أفكر تفكيرًا جدِّيًّا في الحال والمآل، إذ كنتُ بين أمرين: إمَّا أن أبيع ديني بدنياي، فأمتنع عن العودة إلى الحجاز، وألجأ إلى أعداء ابن سعود، فتثبت التهمة، وأوصم بالخيانة، وتسوء العاقبة عند الله، وإمَّا أن أتمسك بديني وأحتفظ بيقيني وأرجع إلى عبدالعزيز الحليم الرشيد وأتعرض لغضبه وانتقامه، والمثل يقول: اتَّقِ غَضَبَ الحليم، فاخترتُ الشق الثاني رغم ما فيه من خطورة؛ لأن فصل عنقي بسيف ابن سعود إن كان عَدْلاً فيكون بترًا لعضو خطر في جسم الأمة الإسلامية، وإن كان ظلمًا فيكون شهادة أضمن بها الجنة وهي أقصى ما يبتغيه المؤمن.

ومع ذلك فقد احتطتُ لنفسي، وأبرقت لجلالة الملك برقية رفعتُ فيها أن المخابرات وقعت في يدي، وأني رجل مبدأي الدين، ولا يمكن أن أضُرَّ بمصلحة المسلمين، وسأرجع إلى الحجاز رَغْمَ أنف المفسدين وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون، كما أبرقت من القدس في عودتي إلى الحجاز بعد استلامي لبرقية وزارة الخارجية بأني- بالرغم من علمي بحقيقة أسباب سحبي سأبحر على الباخرة المعيَّنة.

ورجعت على الباخرة التي أبحرت من السويس أول نوفمبر سنة ١٩٣٠م، ١٠ جمادى الثانية سنة ١٣٤٩هـ، ووصلتُ مكة المكرمة، ومُنعتُ من التشرف بالسلام على جلالة الملك بحجة غضبه عليَّ، واستأنفت عملي بوزارة الخارجية، وراجعت يومًا إضبارتي فرأيت ضمن أوراقها برقية مرسلة من رئيس الوفد النجدي لمؤتمر المنهويات هذا نص الفقرة التي وردت فيها خاصة بي:

«أمين التميمي ذهب إلى الشام بنية الرُّجوع، ولستُ مرتاحًا لحركاته، وسأعرِّفكم مفصَّلا بالبريد».

كما اطلعت على كتاب أرسله للخارجية بعد مغادرتي شرق الأردن وعَقب إعطائي كتاب التوصية، يُصِرُّ فيه على رأيه الأول. ويقرر أنه اضطر إلى إعطائي كتاب توصية ليضمن عودتي.

وبعد وصولي بشهرين سنحت لي فرصة تشرفت فيها بالمثول بين يدي جلالة الملك فأجلسني بجانبه، ودار بين جلالته وبيني الحديث التالي:

قلت: لقد عهدتُ في جلالتكم الصَّراحةَ التَّامَّة وقد تلقَّيتها عنكم فاسمحوا لي أن أكلّمكم بها.

قال جلالته: تفضَّل.

قلت: هَلْ في نفسكم شيءٌ عليَّ بسبب الوِشاية التي وصلتكم وأنا في المؤتمر؟

قال جلالته: عليكَ أنْتَ؟

قلت: نعم.

قال جلالته: لا، أبدًا. وأنا أُعلِمُكَ ياتميمي أنّي لا آخذ إنسانًا بذنبٍ إلاَّ بعد أن أنبهَهُ أَوَّلاً وثانيًا ولاآخذه إلاَّ في الثَّالثة، ولكني ماوجدتُ عليك شيئًا يستحق حتى التنبيه، وأنا أعرف أنه كثيرًا ما يحدث مثلُ هذه الأمور بين رجال الدَّولة.

قلت: أشكركم ياطويل العُمُر، وأرجو أن تتأكَّدوا أني أشد إخلاصًا منكم لشخصكم الكريم؛ لأنَّكم ربما عملتم عملاً يضُرُّ بمصلحتكم دون أن تشعروا بضرره، ولكني أشعرُ بهذا الضَّرر فلا أقدم عليه وأرجو أن تتأكَّدوا أيضًا أنَّ حُبّي لكم يفوق حبّي لوالدي لأنه فردٌ من الأفراد ولكنكم مطمحُ آمال العرب وموضعُ أنظارهم ومَعْقِلُ رجائهم.

قال جلالته: وأنا لا أعدّك ياتميمي خادمًا من خدامي بل أعدُّك ولدًا من أولادي.

فشكرت جلالته وانصرفت من حضرته وأنا مطمئن الخاطر مستريحُ البال منشرحُ الصَّدر لهذا الاكتشاف في أخلاقه السَّامية.

وأما قوته في أمر الله وأثرها في رعيته؛ فالدليل عليها ماكان للحكم السّعودي من أثر فعَّال في القضاء على كثيرٍ من الفَوضى التي كانت ضاربةً أطنابها في بلاد العرب قبل استظلالها بظلّه، ويرجع الفضلُ في ذلك إلى الشريعة الإسلاميَّة الغراء أوّلاً، ثم إلى قوَّة ابن سُعود في تنفيذ أحكامها وشدَّة بَطْشِه بمن تحدثه نفسُه في الخروج عليها... فقد ندرَتْ جدًّا الحوادث الفَردية كالسَّرقة وشرب الخمر والزّنا وماشابه ذلك مما يوجب القصاص، واختفت نهائيًّا الحوادث العامَّة المتعلّقة بالأمن العام كقطع السّابلة والاعتداء على حُجَّاج بيت الله، فانقلَبَت الأوضاع وأصبح الذي كان في الماضي خائفًا على ماله وعرضه ونفسه آمنًا مطمئنًا يسير من أقصى بلاد ابن سعود عند حدود اليَمَن إلى أقصاها عند حدود العراق يحمل الذهبَ لايتعرض له إنسان بسوء، وأصبح الذين كانوا بالأمس محاربين لله ورسوله ومفسدين في الأرض أشدَّ الناس محافظةً على أبناء السَّبيل ومساعدةً لهم؛ بل لقد أصبح بعضهم عُبَّادًا زُهَّادًا يأمرون بالمعروف وينهَوْن عن المنكر ويُسارعون في الخيرات.

ولن أسرد هنا مايروى عن الأمن الواقع في بلاد العرب من الحكايات الشبيهة بأحاديث الخرافة، ولكنّي سأذكر حادثَيْن وَقَعَا لي شخصيًّا أثناء حلّي وترحالي في بلاد ابن سعود.

الحـادث الأول

وقع لي في الطَّائف سنة ١٣٤٩هـ / ١٩٣٠م.

عندما أُمرت بالاستعداد للسفر إلى شرق الأردن لحضور مؤتمر تحقيق الغزوات والمنهوبات، فقد اشتريتُ صباح يومٍ كلَّ مايلزم للبيت من مؤونة، وتنبَّهتُ بعد صلاة العصر إلى أنّي نسيت الغاز، ولما ارتديت ملابسي تفقَّدتُ حافظةَ نقودي فلم أجدها في البيت، فذهبت إلى السّوق وسألت أصحاب المحال التي مررتُ عليها في الصَّباح، ثمَّ وجدتُها ملقاةً على الأرض أمام محل البدَّال في شارعٍ مطروقٍ كشارع الموسكى بالقاهرة دون أن تمسَّها يدٌ بسوء ... يقابل هذا حادثٌ وقع لي في القنطرة الغربية من القطر المصري سنة ١٩٣١م، أيام انتخابات دولة إسماعيل صدقي باشا ... كنتُ عائدًا سَنَتَئذٍ من فِلَسطين إلى الحجاز، وكان الجيش المصريُّ مستدعًى من العريش لحفظ النظام أيام الانتخابات، وفي اللحظة التي صعدت فيها إلى مركبة القطار القادم من بورسعيد نُشِلَت حافظةُ نقودي، وبلَّغتُ الخبر نقطةَ بوليس القنطرة وضابطَ القطار الذي اهتمَّ بالحادث وفتَّش جميعَ رُكَّابه دون جَدْوَى، ولمَّا وصل القطار إلى الإسماعيلية كانت قد سبقتنا إليها برقيةٌ من بوليس القنطرة نصها:

«لقد وجدت المحفظة بين قضبان السّكة الحديد خاليةً من النقود»... والذي حدث بعد ذلك أن بوليس القنال أرسل إليَّ الحافظةَ الخاليةَ بحرزٍ إلى الحجاز عن طريق المفوضية العربية السّعودية بالقاهرة، ولا أزالُ محتفظًا بهذا الحرز المكين.

الحادث الثاني

لما كنتُ متجهًا مع الوفد النَّجدي لمؤتمر المنهويات وكان سفرنا بالسَّيارات عن طريق البرّ، وكانت القافلة مؤلفةً من ثماني سيارات نقل وسيارة صغيرة، أمّا سيَّاراتُ النقل فقد كانت إحْداها مشحونةً بقطع الغيار والسبع الباقية كانت مخصَّصةً لركوب مشايخ القبائل التي لها صلة بأعمال الغزو والنهب ولأدلاّء الطَّريق وخدم الوفد، أمّا السيارة الصغيرة فكانت مخصَّصةً لركوب رئيس الوفد والدليل في المقعد الخلفيّ، ولركوبي بجانب السَّائق لملاحظة عدّاد السيارة لوضع تقريرٍ عن مسافة الطَّريق وحالتها بين المدينة المنوَّرة وقريَّات المِلْح.

وكان دليلُنا بين المدينة والعُلاَ رجلاً اسمه: (حُمُود بن مِريخان)، ولما سمعني أُغنّي صباحَ اليوم التَّالي لمغادرتنا المدينة المنّورة،

قال: ياشيخ اذكر الله ولا تُغَنِّ.

قلت: لاإلهَ إلاَّ الله محمَّدٌ رَسُولُ الله، لكن ياحمود السّفر بعيد ألاَ نُسلّيه بالغِنَاء؟

قال: أليس ذكر الله أحسن؟

قلت: إي بالله ذكر الله أحسن لكن أسألك بالله ياحمود كم شخصًا قتلتَ في حياتك؟

قال: والله ما أدْري ٣٥ أو ٣٦.

قلت: وممّن كان هؤلاء؟.

قال: أكثرهم من عساكر الترك ومن الحجاج.

قلت: ولماذا قتلتهم؟.

قال: طمعًا في المال، وبعضهم كنت أستخسرُ فيه الرصاصة عندما أفتشه ولا أجد معه شيئًا فأقول ياخسارة الرّصاصة.

قلت: تعني أنّ الرّصاصة كانت عندك أثمنَ من حياة رجل؟.

قال: إي بالله.

قلت: هأنذا أحمل نقودًا كثيرةً، أفلا تقتلني وتأخذها؟.

قال: لا والله ماأكلّمك ولو رأيتك تحمل الذهب وحدك.

قلت: لماذا؟.

قال: لأنّنا ماكُنّا نعرف الله ولارسولَه ولا الحلالَ ولا الحرام، لكن (دَه حين) الآن عرفنا الله والرَّسول وأمورَ ديننا ودنيانا بفضل الله ثم بفضل عبدالعزيز طوَّل الله عمره ونرجو الله أن يتوبَ علينا.

قلت: أبشر بالتوبة وبحسن العاقبة مادمت مخلصًا نِيَّتَك لله تعالى الذي يقول:

﴿قل يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِم لاَتَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ الله إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (سورة الزمر، آية:٥٣).

وهكذا يغزو عبدالعزيز قلوبَ النَّاس جميعًا حتى الأشقياء وسفَّاكي الدِّماء، فينقلبُ أحدهم واعظًا ينهى عن الغِناء.

أما حلمه وسعة صدره فتُروَى عنهما رواياتٌ كثيرة، خصوصًا على مَنْ له سابقةُ خدمةٍ عنده.

أمَّا الحادث الذي وقع لي، ممايدل على واسع حلمه ورحابة صدره فأفصِّله فيما يلي:

وصلَتني في أواخر سنة ١٣٤٩هـ ، أوائل سنة ١٩٣١م برقية من صديق لِوالدي يقول لي فيها: والدك في حالة خطيرة احضر حالاً فعرضتُها على سموّ الأمير فيصل بوصفه وزيرًا للخارجية مشفوعةً بطلب أرجو فيه التصريح لي بالسَّفر إلى فِلَسطين لمدة شهر، وبينما أظهر سموُّه موافقتَه الشفهيَّة على طلبي، إذا بالطَّلب يصِلُني في اليوم التالي مُؤَشرًا عليه جملةُ يستشار جلالة الملك، وكانت قد وصلَتْني برقيةٌ أُخرى، فأخذتُ الطَّلب والبرقيتين، وتوجَّهتُ إلى القصر الملكيّ، واستأذنتُ للتشرف بمقابلة جلالة الملك، فأُذن لي وعرضتُ الأمر على جلالته الذي أذكر أنَّه استدَعى رئيسَ ديوانه وأمره بالكتابة لوزارة الخارجيّة بالتصريح لي بالسَّفر لمدة خمسةٍ وأربعين يومًا.

وتهيَّأت يومها للسفر، وفي اليوم التالي غادرت مكَّةَ مع حَرَمي وطفلتي إلى جُدَّة ونزلنا في بيت الأستاذ الفاضل الوجيه الشيخ محمد نصيف الذي يُعدّ منزلُه محطَّ الرجال الغادين والرَّائحين، وراجعتُ عَقِبَ وصولي شركَتَي البواخر الخديوية والإيطالية سائلاً موعد قيام أَوَّل باخرة.

وبينما كنتُ جالسًا مع الأستاذ في مجلسه العامر بالظَّرف والأدب، وبين خزائنه الحاوية لأشهر وأندر وأنفس الكتب، إذا بجرس المسَرَّة يدق، فردَّ الأستاذ:

قال: نعم.

المتكلم: .....؟.

الأستاذ: أهلاً وسهلاً.

المتكلم : ......؟.

الأستاذ: نعم عندنا.

المتكلم : ....؟.

الأستاذ: تفضَّل كَلِّمْهُ.

وناولني السَّمَّاعةَ قائلاً:الشيخ علي طه وكيل القائمقام. (المحافظ)

قلت: نعم.

قال: أنا علي طه.

قلت: مرحبًا.

قال: لقد حادثني جلالة الملك بالتلفون شخصيًّا وأمرني بأن أمنعك عن السَّفر.

قلت: سمعًا وطاعة، وتركت السَّمَّاعة.

وبعد ظهر اليوم الذي يليه، حادثني معالي الشيخ عبدالله السليمان وزير المالية بالمسَرَّة من مكَّة.

قال: نبغاك في مكَّة الآن.

قلت: ماعندي سيَّارة.

قال: الآن تأتيك سيارة، وأنا منتظرك في جَرْوَل؛ وبعد دقائق كانت سيَّارة الشيخ محمود شلهوب. مدير مالية جُدَّة في ذلك الوقت واقفةً أمَام منزل الشيخ محمد أفندي نَصِيف، فركبتُها وحدي إلى مكَّة، وقُبَيْل صلاة العشاء كنتُ في منزل معالي الوزير، وكان معه سعادة الشيخ عبدالله الفضل رئيس مجلس الشورى، فقال لي معاليه: لقد كنتُ السَّبب في تأخير سفرك لأن في المالية عملاً أحبّ أن تنظمه قبل أن تسافر.

قلت: إنَّني خادمٌ على كلّ حال، ومستعدٌّ لأن أقوم بأيّ عمل بعد عودتي قال: هذا أمر الملك وأنت تعرف شغلك مع جلالته. وقضيتُ ليلتي في مكَّة، وعند بزوغ شمس اليوم التالي كنتُ في طريقي إلى القصر الملكي بسيارة الشيخ محمود شلهوب التي ظلَّت تحت أمري وكان جلالته جالسًا في ذلك الوقت لشؤون رعيَّته، فاستأذنت، فأذن لي، فدخلتُ، فأجلسني جلالته بجانبه، ودار بيننا الحديث الآتي:

قال جلالته: هل بلَّغك عبدالله السّليمان أمرنا؟ قلت نعم ياطويل العمر، لقد بلَّغني أمرَكم المطاع، ولكنّي ماأظنّكم ترضَوْن بأنْ أترك والدي في مثل

هذه الحالة الخطيرة وليس عنده إلاّ بنات وأطفال صغار، وهو الذي لولاه لما جئت على وجه الدنيا ولما تشرفت بخدمتكم، ثم إنَّ زوجي مريضة أيضًا، وتحتاج لمعالجة في الخارج.

قال جلالته: والدك إن شاء الله ماتجيه إلاَّ العافية، وزوجك تُطلعها إلى الطَّائف وأنا أعطيك سيَّارةً وبيتًا.

قلت: لست مستغنيًا عن كرمكم ولكنّي طامعٌ في عطفكم عليَّ بالسَّماح لي برؤية والدي.

قال جلالته: الآباء يعظمون الأمور الصغيرة والمسألة لاتتعدَّى في اعتقادي التوعُّكَ البسيط إن شاء الله تعالى، فلا تشغل فكرك من هذه الناحية.

لقد أصرَّ جلالته على تأخير سفري، ومن ذا الذي يقدر على زحزحة ملكٍ عن رأيه؟ وأيّ ملكٍ يرضخ للحكمة والمنطق في مثل هذا الموقف؟ وأيّ إنسانٍ يجرؤ على معارضة الملوك؟ أو على محاولة إقناعهم للرجوع عن وجهات أنظارهم؟ أفلا يرى القارئ الكريم أنَّه لابدّ من الرَّضوخ والتسليم، وأنَّ كل محاولة للإقناع مقضي عليها بالفشل؟.

الجواب بلى طبعًا.

ولكنّ مالمسته في هذا الرجل العظيم من حلمٍ كبير وتواضعٍ جمّ وإصغاءٍ حتى لأجلاف الناس ورجوع إلى الحق حيثما وجَدَه، جرَّأتْني كلّ هذه الصّفات التي عرفتها عنه على توجيه نظر جلالته إلى أنَّه أصدر أمرًا ساميًا بشأن سفري وأنّي لا أزال أعدّ ذلك الأمر قائمًا.

وكنت بعد تجرُّئي على إبداء هذه الملاحظة أراقب تأثيرها على ملامح جلالته. وبعد هنيهةٌ مرَّت فيها على جلالته سحابةُ تفكيرٍ خاطفة، انفرجَتْ أساريرُ وجهه، فاستبشرْتُ بطلائع العطف السَّامي وقال جلالته: ياتَميمي.

قلت: لَبَّيْك.

قال جلالته: قُمْ سافر.

ونهضتُ من مجلسي، وأمسكتُ برأس جلالته، بكلتا يدي، وقبَّلْتُه، ولثمتُ جبهتَه، ودعوتُ له بطول العمر والتأييد وانصرفتُ مؤمنًا بحلمه الواسع، معتقدًا بأنّه يحمل قلبًا كبيرًا يأسر به قلوب الأوفياء، وعقلاً جبّارًا يقلب به الأعداء أصدقاء.

وبعد عودتي إلى جدّة ظهرَ ذلك اليوم، حادثني معالي الشيخ عبدالله السليمان بالمَسرَّة قبل المغرب، وأعلمني أنَّه في جُدَّة، وطلب إلي مقابلته في إدارة ماليتها، فذهبت إليه، فأمر الشيخ محمود شلهوب بحملي وأهلي إلى فِلَسطين بوسائل النَّقل البحرية والبرّية على حساب الحكومة في الذهاب والإياب.

ولما وصلتُ فِلَسطين وجدتُ والدي مصابًا بالحُمرَة، وقد نقل إلى المستشفي الأَميري بنابلُس، وقليلٌ ماهم الذين يُنقذون من هذا المرض، ولكن الله لطف به فاطمأننتُ عليه، ورجعتُ قبل انتهاء إجازتي، ووقعَتْ لي بعد عودتي حوادث ليس هذا الكتاب محلَّ ذكرها لأنها خارجة عن موضوعه، فاضطررت إلى مغادرة الحجاز عن طريق السودان في أواخر ربيع الأول سنة ١٣٥٠هـ، أوائل أغسطس سنة ١٩٣١م.

وهكذا غادرتُ الحجازَ بجسمي دون قلبي، فقد تركتُه في تلك البلاد التي أرجو لها ولمليكها ولشعبها الخيرَ والعزَّ والسعادةَ والرَّخاء.

ومن الدَّلائل الملموسة على عبقريَّة ابن سعودٍ الفكرية التي تَنظِمُه في عِقْدِ دُهاة السّياسة وكبار القُوّاد يُمْنُ طالعه في حياته الحربيَّة وفي سياسته الداخلية، والخارجيّة والإدارية.

أما سياسته الداخلية؛ فإنه قضى على المشكلات التي ظهرت داخلَ بلاده وكانت عاملاً قويًّا من عوامل تأخر نهضتها بحكمة وحنكة لولا اتصافه بهما لاستفحل الداء ولعز الدَّواء ولكَفَتْ مُشكلةٌ واحدةٌ منها لتقويض أركان مملكته ولإعادة الحالة إلى فوضاها السابقة.

أما سياسته الخارجية فإنَّه قَضَى على جميع الخلافات التي كانت قائمةً بينه وبين جيرانه في جميع الجهات، فسوَّى علاقاته بجارتَيْه الكُويت والعِرَاق في الشّمال وباليَمَن في الجنوب وبالإمارات العربيّة في الشرق وبشرق الأردن في الشمال الغربيّ، وبمصر في آخر أيام المرحوم الملك فؤاد حتى أصبح موضعَ إكبار خصومه الأقدمين وإجلالهم واعترافهم بعبقريته وحسن سياسته ... ثم تعاهد مع الدّول الكُبْرَى وبعث الممثلين السّياسيين إلى عواصمها، وجعل لبلاده مركزًا سياسيًّا لم تكن متمتعةً به من قبل.

وها هو ذا يسير في هذه الحرب الضروس التي أكلت الأخضرَ واليابس، واكتَوتْ بنارها جميعُ دول العالم على سياسةٍ غايةٍ في بُعد النَّظر والحِكمة، مما يدل على وسع الحيلة وقوة الإرادة وعظيم التقدير للظروف والأحوال ...

فإنه لم يَزُجّ بنفسه ولا ببلاده في أتونها ولم ينقُض عهدًا عاهدَه ولاأخلف وعدًا وعدَ به، ولم يَجْرِ وراء الخيال فحفظ لبلاده كيانها ولنفسه سلطانها، ولمركزه في العالَمَيْن السّياسيّ والأدبي سُمُوَّه وعُلاه.

أما حنكته الإدارية فليس أدل عليها من كونه يدير شؤونَ مملكته ويسهَرُ على مصالحها بعدد يسير يُعدّ على الأصابع من الرّجال المخلصين، وبموظفين من الدرجة الثانيّة أو هُم دونَها.

وها هو ذا عبدالعزيز يدير شؤونَ مملكته بمثل هؤلاء الموظفين، وها هو ذا يُدرك بثاقب فكره وصائب رأيه أن العلْمَ هو الوسيلةُ الوحيدةُ للنهضة الإدارية في بلاده، فيبعثُ البعثات العلميّة من أبناء مملكته المتمتعين بظلّ رعايته إلى المدارس والكلّيات في مصر وفي غيرها، ويبذل لها المال بما عُرِف عنه من بسط يدٍ لايُباريه فيه أحَد، وهاهم المجلّون، من هؤلاء المبعوثين يتخرجون من مختلف المعاهد، ويصلون إلى وطنهم ويحتلون مكانَهم كأعضاء عاملين في جسم بلادهم وكأمناء مخلصين لمليكهم، والمرجو أن يحتفظ هؤلاء المجلّون بعقولهم وأفكارهم مصقولةً عليمةً وبأعضائهم قويّةً سليمّةً ريثما يلحق بهم المُصَلّون فالمُسَلّون فالتّالون فالمُرْتاحون فالعاطفون فالخَطِيّون فالمُؤَمَّلون فاللُّطَماءُ فالسُّكَيت،[1] ممَّن يتسابقون في حلبة العِلْم، فيقومِ على كواهلهم كيانُ الدّولة، ويحقّقون الأَمل الذي وضعه فيهم مليكُهم وتسيرُ بهم البلاد إلى ماتصبو إليه من تقدّم ورقيّ ومجدٍ بخطواتٍ سريعةٍ؛ حقّق الله الآمال.

---

(١) كل هذه من أسماء السباق.

ولو أضاف الإنسان إلى ذلك طبيعةَ بلاد العرب الغنيَّة بالصَّحارَى الجرداء والأراضي البيداء، التي لاتحوي من الأرض الصَّالحة للزراعة سوى بعض واحاتٍ وقطعٍ صغيرةٍ غير متجاورةٍ لايمكن أن تكفي محصولاتُها لغذاء سكّان الجزيرة، ولو أضاف إلى ذلك أيضًا قلَّةَ موارد البلاد وضآلةَ دَخْلها، ثم نظر بمنظار الإنصاف إلى شخصيَّة ابن سعود الذي يُدير شؤونَ مملكته بأولئك المثقَّفين وهؤلاء الموظفين وهذه الأراضي والموارد، فلابدّ من أن يسلِّم بعبقريّة هذا الرّجل الفكرية، ولامفرّ من أنْ يعترف بدهائه وذكائه وقوّة إرادته، وتفتّق ذهنه وواسع حيلته، ولن يتردّد بعد ذلك في الإقرار بأنه من أفذاذ الرّجال، وأنّه لو قُدّر له أنْ يكون ملكًا على بلادٍ غنيَّة بالموارد والمال والرّجال لكان له شأن آخر.

والمرجو أن يكون لظهور ينابيع الزيت ومناجم الذهب في بلاد العرب، وأنْ يكون للاهتمام العظيم الذي يُبديه جلالتُه نحو تقدمها زراعيًّا أثَرٌ فعَّالٌ سريعٌ في رفع مستواها إلى الدّرجة التي تسمحُ بها هذه الموارد الجديدة إن شاء الله تعالى.

الخاتمة

وهكذا ظلَّ أثَرُ المقدّمات والعوامل التي أخرجَتْني من فِلَسطين أيَّامَ الصِّبا، وأثر المشاهداتِ التي رأيتُها في طريق الهداية، وأثَر المقابلاتِ التي شرَّفتني بها عبدالعزيز بن سعود، ظلّ هذا الأثَرُ عالقًا في ذهني مسيطرًا على نفسي ملازمًا لي؛ بل أصبح مسيطرًا على نفوس أولادي الذين يُشيدون الآن بذكر عبدالعزيز، ويَعُدُّون أنْفُسَهم مَدينين له بالنشأة الإسلامية التي يُنشئهم عليها والدهم الذي هُدِي إلى صراطٍ مستقيم بسبب عبدالعزيز وبلاد عبدالعزيز وشعب عبدالعزيز.

وهأنذا أشكر اللهَ الذي هيَّأ لي الظروف والأسبابَ التي أخرجَتْني من بلدي، وهيَّأ لي العوامل والمقدّماتِ التي وجَّهتني إلى سبيله القويم، وهيَّأ لي المناسبات التي عرَّفتني بهذا الرجل العظيم الذي لم يطرأ على حُبّي له أيّ فتور بالرغم من مرور أربع عشرة سنة على مبارحتي لبلاده بل زاده البُعد التهابًا.

وهأنذا أسمّي ولدًا رزقنيه الله عبدالعزيز كي أردّدَ الاسم الذي أحببته، ولا أزال متمسكًا بجنسيتي العربية السعودية كيّ أظلَّ مستظلاً براية التوحيد، وكي أظلَّ خاضعًا للسيف الذي يَفُلّ الحديد.

وها هو لساني يلهج بالدّعاء لعبدالعزيز في كل مناسبة. أدعو له كلّما رأيتُ القبور للشَّكاوى تُقصد، والخِرَق في شبابيكها ومقصوراتها تعقد، والأموال على بنائها ونقشها وكسوتها تُصرف، والدموع لطلب الحاجات من الأموات

تُذرف، والدعاء والاستغاثة والخشية والإنابة والخوف والرَّجاء، تُوجَّه إلى من لا يستجيبون الدُّعاء. وأدعو له إذا رأيتُ الجاهلين يقصدون الدجَّالين من قارئي الكَفّ والفنجان، وضاربي الرَّمل والوَدَع والمنجمين والمنوّمين المغناطيسيِّين لينبئوهم عن المستقبل وليكشفوا لهم ستائر الغيب، وليقشعوا السُّحب عن عِلْم الله الذي لم يمنحه أحدًا من خلقه إلا بما شاء، لمن شرَّفه من الأنبياء.

وأدعو إذا رأيت النِّساء مُتبرِّجات، يمشين في الأسواق وحوّل المقاصف مُلتفَّات، وفي الصَّالات مُنتشِرات، وللرِّجال مُخاصِرات، وعلى أنغام الموسيقَا راقِصات، بينما هُنَّ في بيوتهن مُنَغّصات لأزواجهن مُنَكّدات.

وأدعو له إذا رأيت الصَّلاة متروكة والحرمات منهوكة، والزكاة ممنوعة، والأرحام مقطوعة، وشهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن لا يُصام، وأموال الناس تُؤكل بالباطل ويُدلى بها إلى الحكام.

وأدعو له إذا رأيت الأموال تُسرق والأفئدة تُحرق، والشرفَ يُهان، والعِفَّة لا تُصان.

وأدعو له إذا رأيت الخمرَ تُشرب، والمَيْسِرَ يُلعب، والفِسقَ يُؤتى، والمحلّل يُفتى، والمعاصي تُعلن، والناسَ تُفتن.

إذا رأيت كل ذلك، وهو بعض ما هنالك، تذكَّرتُ نجدًا ومن حلَّ فيها، وما شاهَدتُه في بلادها وفيافيها، وما على الشَّاكّ إلا أن يرحل إلى نجدٍ ليرى ما رأيت وما عليه إلا أن يمتزج بابن سعودٍ ليؤمن بما آمنت به.

أسأل الله أن يُصلح فساد قلوب المسلمين ويُوحّدَ كلمتهم، ويُؤلّف بينهم، ويجمع شملَهم على السّير في سبيل الله طبقًا لروح الإسلام، إنَّه أكرمُ مَسؤول.

وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم.

فهرس الأعلام

- ن -

- هـ -

فهرس الأماكن

- أ -

- ب -

فهرس المحتويات

الإخراج و التنفيذ الطباعي
مؤسسة مرينا لخدمات الطباعة - الرياض - هاتف: ٤٧٦١٥٥١ - فاكس: ٤٧٣٠٧٦٧